F A R I D   B A G H D A D I

# لا..

# لن أتخلّى عن أرضِ الأجداد

فريد بغداد



رواية لليافعين

# لا... لن أتخلّى عن أرضِ الأجداد

-رواية لليافعين-

# لا...
# لن أتخلّى عن أرضِ الأجداد

-فريد بغداد-

# (1)

# بدايةٌ حالِمة

منذُ أن استقرّت عائلتُنا في خِربة الصّفا وأبي لا يغادر حقلَه الذي استعاده من يهوديّ، كان أبوه قد أخذَه غصبًا من جدّي الأكبر، استولى عليه عُنوةً بالطّريقة ذاتها التي احتلّ بها الصّهاينة أرض فلسطين، بالنّار والحديد والتّرهيب. وعلى الرّغم من كون أبي احترف السِّباكة منذ أن كان في مثل عمري، وإلى جانب أنّه لم يندم على بيعه لبيته ومحلّه الذي يقع في قلب مدينة الخليل، وعلى فقده لحِرفة كانت تُدِرُّ عليه دخلا جيّدا، فإنّني ألمحُه دائما بينما يغمسُ قدميه في الطّين ليسقي الزّرع في الحقل، أو يُعفّر ملابسه في التّراب إذ ينكُش بالمجرفة الحشائش التي تلتفّ حول جذوع أشجار الزّيتون واللّوز ويُزيلها عنها، وهو في منتهى البهجة والسّعادة الغامرة وقّة الرّضا والفرح، وقد أصبح فلّاحا كأيّ فلّاحٍ آخر بالمنطقة، لم تُنغّص عليه قلّةُ ما يجنيه من البستان والحقل تمامَ سروره وسعادته، رغم أنّ محصولهما لا يساوي شيئا يذكر، في مقابل ما كان يحصُل عليه قبل تمكّنه من استعادة أرض الجُدود.

قبل سنتيْن من مغادرتنا لبيتنا في الخليل، كان أبي قد سمع من أحد السّماسرة الذين يتاجرون في العقارات والأراضي، أنّ يهوديا يُدعى "عِزرا " قد قرّر أن يبيع أرضًا يمتلكها في خِربة الصّفا ويهاجر إلى موطنه الأصليّ في بولندا، أسرّ السّمسار لأبي بأنّ عزرا هذا سيتخلّى عن مزرعته التي يتوسّطها منزلٌ جميل، لم يسكنه منذ بناه، مقابل أيّ

مبلغ مُقنعٍ يُمكّنه من العودة إلى بلاده وشراء مسكن هناك، بعدما ازدادت وتيرة العمليّات الفدائيّة في الأيام الأخيرة. طار أبي من الفرح حين علم بالخبر، ومذ ذاك الوقت وهو لا يكفُّ عن الحديث مع والدتي عن قرب تحقّق حلمُه وحلمُ أبيه وجدّه في استرداد أرضهم.

في أحد الأيّـام أخبر أبي أمّي بأنّه استطاع أخيرا أن يبيع المحلّ والبيت بمساعدة السّمسار، وأنّه كلّفه بالتّوسط لدى سمسار يهوديّ يعرفُه، بشراء المزرعة نيابةً عنه، حتّى لا يتمكّن عزرا من معرفة من ستؤول إليه ملكيّتُها، يُدرك أبي جيّدا أنّه لن يقبل ببيعها لفلسطينيّ حتّى ولو أعطاهُ ثمنَها مضاعفا، فضلًا عن أن يكون حفيدُ صاحبِها الأصليّ هو من سيشتريها.

كان يومُ رحيلنا إلى مزرعتنا أشبه بيوم العودة المأمول لِلَاجئي فلسطين في الدّاخل والشّتات، كما كنت أتصوّرُه حينما أسمع من الشّيوخ والعجائز قصصهم التي تنتهي بأمنياتٍ برجوعهم مجدّدا إلى مُدنهم وقُراهم وخِرَبهم في حيفا ويافا والقدس وغيرها، كانت دموع الفرح تترقرق من مقلتي والدي، بينما كنّا ننقل قطع الأثاث من شاحنة النّقل إلى غُرف المنزل التي أَشعرَ جمالُها أمّي بنشوةٍ جامحة وسرور لا يوصف.

***

لم أجد صعوبة كبيرة، منذ الوهلة الأولى التي حطّت فيها عائلتي الرّحالَ بخِربة الصّفا، في إقامة صداقات متعدّدة وجيّدة، كانت البداية مع زملائي في إعداديّة بيت كاحل التي قدمتُ إليها من مدارس الخليل أين درستُ لثماني سنوات، اندمجتُ مع زملائي في الصّفّ بسرعة كبيرة،

فصِرتُ أشاركهم نشاطاتهم وأحاديثهم داخل الفصل وفي ساحة المدرسة، أصبحتُ ألعبُ معِ زملائي الذين يقطنون بخربة الصّفا، بعد خروجنا من المدرسة وحالَ عودتنا إلى بيوتنا، كما أنّني استطعتُ أن أتعرّف على آخرين منِ خلالهم.

أَعتبِرُ أنّ مروان أقربَ أصدقائي إلى قلبي، قد يكون تفضيلي له بسبب قُرب منزلهم من بيتنا، وهذا ما أتاح لي أن أقطع معه الطّريقَ التّرابية الموصلة إلى طريق الإسفلت، خلال أيّام الدّراسة، حيث نقف ونحن ننتظر سويّـةً باص "الخليل - بيت كاحل" في الموقف برفقة أختيِ سلمى وأخته صفاء، وحال رجوعنا في المساء ننزل منِ الباص ونسيرِ معا على الطّريق التي مشينا عليها في الصّباح، فنقضي جُلَّ وقتنا ونحن نتكلّم في أشياء كثيرة وجدت نفسي أتقاسمها معه، عن فلسطين وما يفعله الاحتلال يوميّا بالأرض والبشر، مضايقاتٌ وحواجز وهدم للبيوت ومصادرة للأراضي، وعن بناء الجدار العازل وما يتسبّب فيه من تشتيت للعائلات وتقطيع للأوصال وتقسيم للأراضي، وكلُّ ما ينجرُّ عن ذلك من معاناة للوصول إلى الطّرف الآخر من الجدار، إنّه أشبه ما يكون بسجنٍ كبير.

مع بلوغي المرحلة الثّانوية بعد سنة على إقامتنا بالخِربة، أصبحتُ أقومُ مع زملائي بالعديد من الأنشطة الفردية، التي يُظهِر من خلالها كلٌّ واحد منّا ميولاته وهواياته المفضّلة، وما يستطيع أن يقدّمه أمام زملائه من عروض، زميلنا بشير بارعٌ في الشّعر، نتحلّق حوله، نحنِ الذين نقطن بالخِرَبِ المجاورة لقرية بيت كاحل، في المقصف مباشرةً حالَ انتهائنا

من وجبة الغداء، لنستمع لقصائده المكتوبة على ورقة، يحملها بطريقة يُجاري فيها أسلوب محمود درويش في الإلقاء، أحيانا كان يَرتجلُ بعض الأبيات من الشّعر الحرّ فيَقرِضُها محاكيا الشّاعر الكبير سميح القاسم في حركاته ونَظْمِه، كان شِعرُه يبدو أكبر من أعمارنا، يتناول مواضيع حول الهجرة والهويّة، يتحدّث عن أوضاع الأسرى واللّاجئين والمبعدين ومن اغتُصِبت أراضيهم وهُدمت دُورهم.

هناك أيضا صديقنا جمال رسّامُ الثّانوية، أو صاحب الفُرشاة الذّهبية كما نلقّبه دوما، أغلب رسوماته تجسّدُ الطّبيعة الفلسطينية الخلّابة التي تحتضن الإنسان المثقل بهمومه حتّى النُّخاع، يصفُ بريشته البارعة آلام المرأة ومعاناتها، كنت وأنا أقف عند إحدى لوحاته في معرض متواضعٍ للصّور، أقامه مع نهاية الثّلاثي الأوّل، أتخيّل أمّي وما تلاقيه من صعوبات في التّأقلم مع الحياة التي لم تعتدها في الرّيف.

كما لا يمكنني أن أنسى بأيّ حال أداء صديقي الحميم مروان حين يعتلي مصطبة الفصل ويرفعُ عقيرته، فيخطب فينا بما تجود به قريحته الأدبيّة من مواعظ وإرشادات، بأسلوب بديع ومليء بالكلام المسجوع والموزون، تزيده بهاءً طريقةُ حديثه المفعمة بالحيويّة وكلامُه المسترسل والمتدفّق، الذي ورثه عن جدّه إمامُ وخطيب مسجد بيت كاحل، إضافةً إلى ذلك فإنّه مرِحٌ وصاحبُ دُعابة، فكثيرا ما يمزج حديثه الجادّ بفكاهته ونوادره حينما يرى السّأم قد دبّ فينا وطفِقنا نتثاءب من طول خُطبه العصماء، فيُغيّر موضوع الكلام دون أن نَشعر، ويشرع في

تقليد أصوات شخصيّات شهيرة من سياسيّين وإعلاميّين، فيُثير ضحكنا ويدفعنا إلى مكافأته بتصفيق حارّ وصفير مدوّي.

وحتّى نتمكّن من القيام ببعض الأنشطة الجماعيّة على أحسن وجه، فلا أفضل من التّكاتف والتّعاون، ومن أبرز تلك الأنشطة صحيفةُ الثّانوية، كثيرا ما يُساهم فصلُنا فيها، أكتبُ مقالات متنوّعة تتناول مواضيع تتعلّق بهموم طلّاب الثّانوية وهواياتهم، لا ألبث بعد صياغتها وتحريرها أن أُمرّرها لرضوان خطّاط الفصل كما نسمّيه، لديه مقدرة مذهلة على الكتابة بخطوط متنوّعة، من النّسخ إلى الرُّقعة والكوفيّ والدِّيواني، أطلبُ منه أن يدوّن بخطّه الجذّاب مقالاتي التي تُعلَّق حالَما تُصبح جاهزة على جِداريّةٍ بِرُدهةِ مبنى الفصول، أين يكون بوسع كلّ من يمرّ من هناك، أن يقف ويطّلع على جديد الصّحيفة التي ننشرها بشكل شهري.

يوجد لدينا أيضا فرقتُنا الغنائيّة التي تُشدِينا بألحانها العذبة، وتُتحفنا بأغاني من التّراث الفلسطيني وأناشيد وطنية حماسيّة ومدائح دينية وِجدانيّة، يتقدّمها زميلنا رؤوف صاحبُ الحنجرة الماسيّة والمتميّز بمواويله الشّجيّة ودلعوناته العذبة، خصوصا تلك التي تحكي عن معاناة الشّعب الفلسطينيّ وأحلامه بالاستقلال والعودة وتحرير الأقصى واستعادة الأرض المصادرة والمغتصبة، لا يمتلك رؤوف صوتا حسنا فحسب، عنده أيضا مِقلاعُه الذي لا يُفارقه كلّما خرج في جولة خلوية، لديه ضربات قلّما تُخطئ هدفها.

***

كنّا نستظلُّ تحت شجرة الأحلام حينما أزاح صديقي مروان قطعةً من لحائها السّميك والقاسي، وكتب على جذعها الذي صار أملسا مثل الجلد حُلُمه الثّالث: "سيصبح مروان محامياً". اختطفتُ من يده مسمارا اتّخَذه قلمًا ليحفر به كلماته تلك، وكتبتُ على طريقته إلى الأسفل منها قليلا: "وسيصبح سمير كاتبًا روائيًّا".

كان سببُ تدويننا لِحلُمينا حديثُنا عن واقعة حدثت قبل يومين في خِربتنا، بعدما أنهينا قراءة مقال في صحيفة القدس، تناول موضوعَ تجريف قوّات الجيش الإسرائيلي لمزرعة في قرية حلحول شماليّ الخليل، تعود ملكيتها لعائلةٍ فدائيّ كان قد هرب إلى خربتنا واختبأ بمغارتها المتواجدة بها، بعد أن طاردته أجهزة الأمن، فقد ورد اسمه في قائمة المبحوث عنهم والمشتبه بهم لديها، في قيامهم بعمليات فدائيّة طيلة أشهر خلت، نجم عنها مقتل العديد من الجنود والمستوطنين الذين استولوا على أراضٍ ومزارعٍ لعائلاتِ أولئك الفدائيّين، بمباركة من سلطات الاحتلال التي ساعدتهم على بناء منازل وشقق استيطانيَّة عليها ومكّنتهم من تملُّكها، وبعد أن وجدت العائلات المطرودة نفسها بدون مأوى ومصدر رزق، على إثر تخريب مزارعها وهدم منازلها، قَطع مجموعةٌ من شباب تلك العائلات وفِتيانها على أنفسهم عهدا، بأن ينتقموا من المستوطنين وجنود الاحتلال.

كان زياد الشابُّ الذي نفّذ برفقة صديقيْه عملية تفجير حافلة للجنود الإسرائيليين العائدين من مهمّة مصادرة أراضٍ زراعية، قد أُصيب في كتفه كما ذكرته صحيفة القدس، حينما خرج من المغارة على إثر اختناقه

بالغاز المسيِّل للدّموع، الذي ألقت قنابلَه وحدةُ الأمن التي كانت تُحاصر المغارة بشكل مكثّف، وعند خروجه منها كان لا يرى شيئا أمامه، فوجّه سلاحه بشكل عشوائي وفتح النّار حتى يغطّي على انسحابه، لكنّ رصاص شرطيّ صهيونيّ كان يكمُن خلف صخرة بمحاذاة فوهة المغارة أصابه في كتفه، فسقط زياد أرضًا تاركا سلاحه، وعند توقّف إطلاق النّار انقضّت عليه مجموعة من رجال الأمن وافتكّته منه. نُقل زياد إلى المستشفى، غير أنّ الوقت لم يُمهله بعدما نزف منه دمه بغزارة، فلفظ أنفاسه واستُشهد.

قبل تلك الواقعة بأسابيع كانت سلطات الاحتلال قد قرّرت الاستيلاء على أراضي عددٍ من العائلات التي تقيم عليها، بعد أن منحتها مهلة أسبوع لمغادرتها، كانت تسعى من قرارها ذاك إلى اقتطاع المزيد من المساحات الزراعيّة من الضّفّة الغربيّة، والمشكّلة أساسا من أشجار الزّيتون واللّوز، وضمّها إلى ما احتلته منذ سنة 1948، لتبني على أجزاء ممتدّة منها بشكل طوليّ جدار الفصل العنصري البغيض في عمق أراضي المواطنين الفلسطينيّين، فبعثتْ بقوّات عسكريّة حتّى تُرغم العائلات على إخلاء منازلها بالقوّة.

أَنهيتُ قراءة المقال والشّرر يتطاير من عينيّ غضبًا ممّا ارتكبه الصّهاينة الحاقدين، لففتُ الصّحيفة وألقيتها على جذع الشّجرة وأنا أشعرُ بتذمّر شديد واستياءٍ بالغ، قُلت لمروان:

- هذا ظلم كبير، كيف ينتزع الصّهاينة أراضٍ من أصحابها ويهدمون بيوتهم، ويطاردونهم حينما يدافعون عن أنفسهم، ويَصفُونهم بأنّهم إرهابيّين ويقتلونهم ببرودة دم؟!

- كلّ ذلك بسبب صوتنا الضّعيف، العالم من حولنا يُصدّق أكاذيب الإسرائيليين ومزاعمهم في أنّهم هم المظلومون وليس نحن، وفي مقابل ذلك يرى أنّ الفلسطينيين هم الظَّلَمة الذين استولوا على حقّ غيرهم.

أجاب مروان بامتعاض وأسف شديدين، ثمّ التفت إليّ فوجدني شاردًا أفكّر:

- ما بك يا سمير؟

سألني مروان وهزّني من كتفي حتّى انتبهت.

- أفكّر فيما تُفكّر فيه يا مروان، ولذلك قرّرت أنّني سأصبحُ في يوم من الأيّام كاتبا روائيّا، أكتبُ عن معاناة شعبنا وظلم الصّهاينة المحتلّين له، وسأُوصل صوته إلى العالم بأسره.

- وأنا مثلُك سأثابر حتّى أصير محاميا مثل خالي أحمد، أدافع عن من سلبتهم سُلطات الاحتلال مزارعهم وهدمت منازلهم.

اتّفقنا على تحقيق حُلمينا في يوم من الأيّام، ودوّنّاهما على جذع شجرة الصّنوبر، حتّى تظلّ شاهدة على عزمنا والتزامنا بالقضيّة الفلسطينية.

كانت شجرةُ الأحلام كما أسميناها منذ أن كتبنا أوّل حلم على ساقها الباسق، بأن نبقى صديقين طوال حياتنا فلا يفرقّنا شيء، ملجأنا الذي نلتقي تحته دائما كُلّما داهمتنا الأحزان أو داعبتنا الأفراح.

يجتهد مروان كثيرا في تعلُّم فنّ الخطابة، قال لي أنّه منذ أن كان صغيرا وهو يُطالع بشغف أشهر الخُطب في التّاريخ العربيّ الإسلاميّ، فكان يحفظ عن ظهر قلب خُطبا للقسّ بن ساعدة، وخطبة حجّة الوداع التي ألقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجيج، وخُطب سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحجّاج بن يوسف الثّقفي وطارق بن زياد وغيرهم كثير، وعندما انتقلنا إلى الثّانوية وانتسبنا إلى الشّعبة الأدبية زاد شغفه بالأدب، فصار يُطالع معي الصّحف والمجلّات وكتب اللّغة العربية على اختلافها، من بلاغة ونحو، إلى جانب الرّوايات والقصص التي كنّا نقتنيها من مكتبات مدينة الخليل، فقرأنا تحت شجرة الأحلام كُتب كليلة ودمنة ومقامات الحريري والأصفهاني والبغدادي وغيرهم، وحتّى في فصل الصّيف وبداية الخريف نجتهد في المطالعة ونتحمّس لها، بينما ينهمك أهالي الخِربة في الحصاد وجني الغِلال من تين وعنب ولوز وزيتون.

# (2)

# رحيلٌ قبل الأوان

أتممتُ قراءةَ رواية "عائدٌ إلى حيفا" للأديب الفلسطيني الرّاحل غسّان كنفاني، تحت شجرة زيتون بمزرعتنا، لم يكن الطّقس حارّا فقد كانت غيوم شهر فبراير تسدّ السّماء وتمنع كلّ شعاع من أن يصل إلى الأرض، شعرتُ بالدّفء حينما لمحتُ أبي من بعيد، بينما يحمل صينيّة القهوة لجارينا أبو محمود وأبو مروان، كانا يساعدانه في حفر بئر بحقله الممتدّ والمزهوّ باخضراره الفتّان، كانت عيناه في الصّباح تُشعّان حماسة ونتّقدان تلهّفا لرؤية البئر وهو ينضح ماءً، بعدما استمرّ في حفره معهما لأسابيع، ورغم التّعب والإرهاق إلّا أنّه كان في منتهى البهجة، فقد أخبره جارنا أبو محمود بالأمس أنّه لم يتبقّ على تحقّق حلمه سوى بضعة سنتمترات، حيث أنّ المياه المتصاعدة من أسفل قاع البئر غمرت أقدامهم، لحظاتٍ عقب توقّفه هو وعمّي أبو مروان عن الحفر.

كنت قد بلغتُ منتصف الطّريق بين الشّجرة والبئر سائرا نحوهم، حينما رأيت أبي ينزل إليه تاركا صاحبيه يشربان القهوة تحت شجرة لوزٍ قريبة منه، لم يمرّ وقت طويل على ذلك حتّى سمعتُ صراخا عاليا، رفعتُ رأسي فإذا بالرّجُلين يُلوّحان بأيديهما لبعض الجيران الذين كانوا منشغلين بتقليم أشجار بساتينهم في الجوار، أدركتُ أنّ خَطبا ما قد حدث، فرُحت أعدو بكلّ طاقتي نحو البئر، وكلّما تقدّمتُ اتّجاهه ارتفع صوت الصّراخ

وبدا ممتزجا بعويلٍ مصحوب بكلام صار مفهوما قبل بلوغي البئرَ ببضعة أمتار:

- النّجدة... النّجدة... اِلحقونا... لقد دُفن سعيد داخل البئر.

وقفتُ منهارا على ركام التّراب المشرف على فوهة البئر أنتظر بيأس وصول المزيد من الجيران، كي يحفروا التّراب الذي انهار من البئر وتراكم فوق جسد أبي، كنت أدعو من كلّ قلبي أن نجده حيّا، وأقولُ في نفسي بتوسّل: ليس الآن يا أبي... ما زلتَ لم ترَ بعدُ أحلامك وأمانيك التي كانت تشعُّ من عينيك الحازمتين وأنت تنهض باكرا للعمل، مازال ينتظرك الكثير لتقوم به وتُنجزه، لقد استرجعتَ أرض جدّي التي افتكّها الأوغادُ منه كما كنت تقول لي دائما، وتُوصيني أن أحرص على ألّا يحدُث هذا مرّةً أخرى، لم أشبع منك بعد يا أعزّ إنسان، أحتاجك أن تظلّ معي لتحميني وتُلهمني من عزمك الوقّاد.

كانت الهواجس تعترك بداخلي بينما تتخاذل أذرعُ الجيران التي تحفرُ التّراب الجاثم على صدر أبي، ومعها يُصبح أملُ خروجه سالما ضئيلًا كلّما طال الوقت، لم تكفّ عيناي عن البكاء، حتّى بعد أن حضر أعمامي وأخوالي من مدينة الخليل ومن قرية بيت كاحل، وتبعتهم بعد ذلك فرقة الدّفاع المدنيّ، كان النّهار قد حمل حقائبه وغادر، واللّيل خيّم من حولنا ونحن لم نتمكّن بعدُ من الوصول إلى أبي الذي ظلّ مدفونا تحت التّراب.

ومن تحت تراب البئر في الغداةِ شيّعنا أبي إلى ثرى القبر، مثواهُ الأخير، بعد يوم من الحفر المتواصل ليل نهار. مات أبي وتركني وأمّي

وأختي الأصغر منّي دونه، ذهب من كان يصنع لنا بهجة الحياة من عرقه وكدّه إلى غير رجعة، كان رحيله قاسيا علينا نحن الثّلاثة، كنت أرى ذلك في عيني أمّي التي بدت ذاويةً كزهرة ذابلة اقتلعتها ريح عاتية من غُصنٍ متين، كانت تستند عليه وتستريح فوقه بأمان، لكنّ العاصفة كسرته، كُنت أشعرُ بآلامها وهي تنوءُ مرغمةً بما كان أبي يُغنيها عن حمله، غادرتِ البسمة شفاهها المرتجفة منذ تلك اللّحظة التي أيقنتْ بوفاته، فأصبح الجُهد جهدين؛ تعبٌ في البيت ومعاناةٌ في المزرعة.

أمّا أختي سلمى التي لم يمرّ وقت كبير على بلوغها أُولى سنوات المرحلة الإعداديّة، بعد أن اجتازت شهادة التّعليم الابتدائي بتقدير "امتياز" وبمعدّل 9 من 10، فلم تكد تصدّق أنّ أبي مات، حتّى انزوت في ركنٍ بالبيت بعدما انتهى العزاء، الذي أنسانا من حضَرَهُ من الأقارب والجيران بمواساتهم، ولو لبعض الوقت، آلامَ فاجعة مصرع أبي، كانت سلمى تُصرُّ على البقاء في غرفتها منعزلة عن الجميع.

***

كاد الحزنُ أن يظلّ مخيّما على بيتنا لأيّام أخرى قادمة لولا ستر الله، فبعد انتهاء العزاء بأسابيع قليلة، وبينما كنّا عائدين من بيت كاحل على عادتنا بعد انتهاء الدّراسة، وما إن نزلنا من الباص حتّى داهمتنا أمطار رعديّة غزيرة لم أشهد مثلها من قبل، أخذْنا نجري بسرعة كبيرة، المياهُ تغمر أجسادنا، ابتلّت ملابسنا ومحافظنا، بعد دقائق فقط صار الماء يقطر من شعورنا ووجوهنا، عندما أشرفنا على التّلّة التي تنتصب فوقها شجرة الأحلام، رأينا في الأسفل باتجاه بيوتنا أنّ نهرا جارفا قد تشكّل من

السّيول التي كانت تنهمرُ نحو الأسفل، أصبح من الصّعب علينا بلوغ منازلنا، شرعتُ أنا ومروان في وضع بعض الصّخور أمامنا حتّى نمّر عليها ونقطع مجرى المياه، غير أنّ ذلك لم يكن مُجديًا فقد كانت الحجارة التي نُلقيها تغوصُ داخل السّيل الغامر.

لم أُكمل كلامي مع مروان بينما كنت أطلب منه أن نصبر لبعض الوقت ريثما يتوقّف هطلُ المطر وتَنحسِر المياه، حتّى سمعتُ صراخ أختي سلمى التي كانت خلفي، التفتُّ نحو مصدر الصّوت فوجدتُها تطفو فوق المياه التي كانت تحملها مع المجرى، كانت سلمى تبكي وتستغيث بنا لنجدتها وإنقاذها، استبدّ بي الذّهولُ وعجز تفكيري عن إيجاد حلّ لإخراجها من ذلك المأزق، خطرَ ببالي أن أتبعها وأركض بجانب مجرى السّيل، وجدتُ مروان خلفي يقول لي بصوت مرتفع:

- علينا أن نعدو أسرع ونسبق سلمى إلى تلك الشّجرة، مجرى المياه يضيق عندها، كما أنّ بجوارها أغصانا وعيدانا، بإمكاننا الاستعانة بها لإخراجها من الماء.

ما إن وصلنا إلى الشّجرة حتّى خَفَتت سرعة المياه في المكان، بقيتُ أنا بالأسفل بينما تسلّق مروان الشّجرة سريعا، وارتقى إلى غصنٍ غليظ يمتدُّ فوق مجرى المياه، طلب منّي أن أُناوله أطول غصن يابس مُلقى على الأرض تقعُ عليه عيناي، أمسكَه من بين يديّ ومدّه شاقوليّا إلى الأسفل حتّى لامس المياه، ما إن بلغ السيلُ بسلمى الشّجرةَ حتّى ارتمت بكِلتا يديها على الغصن وتشبثت به بكلّ ما أوتيتْ من قوّة، حاول مروان سحبها نحو ضفّة المجرى مبتعدا عن غصن الشّجرة الذي كان

جالسا عليه كأنّه يركبُ حصانا، وحين أصبحتْ سلمى بالقرب منّي، حيث أنّني كنت واقفا على حافّة المجرى أنتظرُ وصولها إليها، مددتُ يدي لأُمسك بيدها، وسحبتُها من المياه.

رغم أنّ الحادثة كانت صعبة وقاسية علينا أنا وسلمى، فقد كان من الممكن أن نفقدها إلى الأبد، غير أنّ تمكُّننا من إنقاذها أنا ومروان أشعرني بقوّة الأواصر التي تربطني بأمّي وأختي، كان لذلك المعنى الجميل أثرٌ بالغ في نفسي، جعلني أُحسّ بأنني مسؤولٌ على أختي الأصغر منّي، خصوصا بعد رحيل أبي، صحيحٌ أنّنا فقدنا والدنا لكن مازالت لدينا أُسرةٌ رغم كلّ شيء، كانت تلك التّجربة نوعًا من العلاج النّفسي لجروح داخلية لم تندمِل منذ وفاة أبي العزيز.

***

مع مرور الأيام اتّضح لي أنّه صار لِزاما علينا أن نواجه الحياة من دون أبي، الذي كان كلّ يوم يخرج فيه من البيت إلى الحقل وكأنّه يدفع عنّا شرور الدّنيا ومصائبها، ويجلب لنا حين عودته في المساء صفاءَ الحياةِ الوادعة والهنيئة، أصبحنا نحن الثلاثة عُزَّلًا دون سلاحٍ نُجابه به مآسي الدّهر وأحزانه، نتلقّى الهموم حاسرين دون دِرع أو تِرس، كان أبي يصُدّ عنّا كل ذلك، افتقدناه كثيرا خلال الأيام التي تلت رحيله.

أَخرُج كلّ يوم هائما على وجهي لا أدري ما يجب عليّ القيام به، المزرعةُ تحتاج إلى همّة رجل في مثل سنّ أبي وقوّته، يتفرّغ كليّة لمتطلّباتها، وأنا لا أزال فتًى يافعا أدرس بالثانويّة لديّ أحلامي وطموحاتي في أن أُكمل تعليمي وأُنهي مساري الدّراسي، إلى غاية أن أتخرّج من معهد الأدب

العربيّ في الجامعة كما أتخيّل نفسي دائما، ماذا عساي أن أفعله وأمّي ليس بمقدورها القيام بما كان أبي يكفينا همّه؟ ما الذي بِيدي أن أقدّمه ونحن في أمسّ الحاجة إلى مَورد رزق يجنّبنا تَكَفُّفَ النّاس وسؤالهم المعونَةَ والمساعدة، لم يكن شبح الفقر وحده من يتراقصُ بين ناظريّ حينما أفكّرُ في الأمر، ماذا لو فشلتُ في الحفاظ على أرض أبي التي قاسى من أجلها وعانى حتى استَرَدّها من الغاصبين، كيف سيكون عليه الحال إن أنا لم أنجح في صون الأمانة وحِفظ الوديعة؟

بالإضافة إلى الأرض المقسومة نصفين، نصفٌ يضمّ حقل زيتون ولوز، والنّصف الآخر كان أبي قد زرعه مرّةً قمحًا وفي الموسم الذي تلاه شعيرًا، فقد ترك لنا بقرتين وقطيعا من النّعاج، كنّا في حياته نعتاش ممّا تُنتجه البقرتان من حليب و زُبدة وجبن تحضّره أمّي، ومما تلده الشّياه من خراف كان أبي يبيعها في سوق الخليل حين تسمن، ويصرفُ على طعامنا وثيابنا وتعليمنا وجميع حاجياتنا ممّا يَحصُل عليه منها، أمّا عن حقل الزّيتون واللّوز فإنّ غلّته كانت تخضع لتقلّبات الفصول، ففي أوّل موسم لنا بالخِربة لم نكد نجني منه شيئا يُذكر، وفي الموسم الذي تلاه طرحت الأشجار المثقلة بالغلال محاصيل وافرة من اللّوز، الذي نشرناه في أشعّة الشّمس حتى يَيبَس وقشّرناه، بعدها وضعناه في أكياس كبيرة باعها أبي لأحد التّجار في مدينة الخليل، أمّا عن الزّيتون فقد احتفظ أبي منه لاحتياجاتنا بجزء يسير، عالجه بمادّة كيميائية حتّى زال عنه طعمه المرّ، وأخذ بالبقية إلى المعصرة في بيت كاحل، لتحويله إلى زيت، قام بتعبئته في أوعية بلاستيكية باعها في سوق المدينة.

## (3)

# عِبءٌ تنوءُ بحِمله الجبال

كان بيتُنا الذي يتوسّط مزارع خربة الصّفا يشبه جزيرةً وسط بحر متلاطم الأمواج، الجيرانُ من حولنا منهمكون إلى أذقانهم في أمورهم الحياتيّة الخاصّة والمتشعّبة، كان ذلك كفيلا بأن ينسانا الجميع ولا يتذكّرنا أحد، فعَدا عن أيّام العطل لم يكن أعمامي وأخوالي يزورونا إلّا في ما ندر، نتفهّم أمّي التي أثقلتها الهموم وأوهنتها الواجبات ذلك، فتقول لي حينما أُبدي تذمّري منهم:

- يا بنيّ هكذا هي الحياة، كلُّ واحد مشغول بشؤونه والتزاماته مع أولاده وأسرته.

أجِدُ كلامها هذا منطقيّا، حينما تسترسل في تبريرها له:

- فلنحمد الله على كلّ حال، أنّهم يتفقّدون أحوالنا حينما يتسنّى لهم ذلك من وقت لآخر، علينا أن نتولّى شؤوننا بأنفسنا ولا ننتظر شفقة النّاس أو مساعدتهم.

اكتشفتُ أنّه رغم مأساة أمّي غير أنّها كانت صابرة مثل جبلٍ راسٍ يُمدّ أوتاده في أرضٍ صلبة، تُعلّمني كيف أواجه الصّعاب والمحن حتّى وأنا لا أزال فتًى بخدود ملساء لم يَشُقّ الشَّعرُ جِلدَها بعد، وجدتُ فيها العزاء والسّلوى عن فقدي لأبي.

زادت أعباء أمّي في الأيّام الأخيرة، تنهض كلّ يوم لتجهّزنا للذّهاب إلى المدرسة، فتُعدّ لنا فطور الصّباح، وتُمشّط شعر أختي وتُلبسها ثيابها،

أحاول أن أكفيها أمري، فقد صرت رجلا بعد وفاة أبي مثلما تصرُّ على قوله لي وإقناعي به، قد أكون اضطررت إلى ذلك وأنا في السّادسة عشر من عمري، قاب قوسين أو أدنى من الانتقال إلى السّنة الثّانيّة من التّعليم الثّانوي بثانوية قرية بيت كاحل.

عَدَا عن تبادلٍ مُحتشم للزّيارات بينها وبين عمّتي أمّ مروان، كانت علاقة أمّي بجاراتها على عكس ما كان عليه أبي مع جيرانه من تلاقي دائم وتعاون مستمرّ، لعلّ ذلك بسبب مُكوثها بالبيت وانكبابها على القيام بشؤونه طوال الوقت، فهي لا تخرج منه إلا نادرا ولحاجة ضروريّة ومُلحّة، في حين كان أبي يُمضي أغلب أوقاته في الحقل، كانت هذه النّقطة بالذّات هي ما ساعده على تعلّم فنون الزّراعة وجميع ما يتعلّق بها؛ خصوصا من جارينا أبو محمود وأبو مروان، بالإضافة طبعا إلى تشبّثه الآسر بالأرض وحبّه الغامر لها، فَهُما ما جعله يتخلّى عن حرفته لأجل العمل فيها.

لم يكن أبي يجد غضاضة في طلب المعونة أو أيّ شيء آخر يحتاجه من أقرب جيرانه، وإن تطلّب الأمر؛ خصوصا إذا احتاج إلى الجرّار والمحراث والصّهريج المقطور لجلب المياه أو الحاصدة، فإنّه كان يقصد عمّي أبو إياد، الذي كان يسكن أبعد من الجميع ويملكُ جميع وسائل الزّراعة وآلياتها.

كانت معرفة أبي بأغلب سكّان الخربة قديمة، بحكم قرب المسافة بينها وبين مدينة الخليل، جعلهم ذلك يلجؤون إليه لتصليح أو تركيب أنابيب

المياه والحنفيّات في منازلهم، أو حتّى صيانة المضخّات في مزارعهم، فقد كانت لأبي درايةٌ وخبرة لا بأس بها بهذا الخصوص.
لا تستطيع أمّي أن تقوم بأيّ شيءٍ من شؤون الزّراعة مهما بدا سهلا وبسيطا، فقد تربّت في المدينة وكبُرت وسط عائلة لا تربطها بالحقول أيّة صلة، إلا ما تراه من مناظر أثناء مرورها عبر الطّرق التي تخترقها، للوصول إلى عدد من القرى المجاورة للخليل أين يقطن بعض أقربائها، غير أنّها وبعد أن أصبحت مضطرّة لذلك بعد رحيل أبي ونظرا لصغر سنّي وانشغالي بالدّراسة، لم يعد أمامها من خيار سوى مواجهة قدرها المحتوم، وأن تأخذ مكان أبي وتَخلُفه على القيام على شؤوننا.
صرتُ أشاهدها خلسةً وهي نتدثّر بثيابها، قبل أن تخرج إلى الحقل بعد مغادرتي أنا وأختي سلمى إلى بيت كاحل للدّراسة كلّ صباح، أَتَلَكَّأُ لبعض الوقت كي أراقبها وأنا مختبئ عنها خلف شجرة الأحلام التي تنتصب في أعلى التّل، بالقرب من طريق الإسفلت عند نهاية الطّريق التّرابية المفضية إلى مزرعتنا، رأيتها مرارا بينما تحمل المجرفة وتحاول نكش الأرض وإزالة الأعشاب الضّارة من حول أشجار البستان.
في المساء وعند عودتي، أحيانا تأمرني بعد أن تُنهي عملها في الحقل بمشقّة، أن أذهب عند عمّي أبو مروان حتّى أطلب منه أن يُشغّل مضخّة بئره، كي نملأ حوض المياه، ونتمكّن من سقي الأشجار، لم يكن ذلك بالمجّان، حيث أنّ أمّي تضعُ في يدي مع نهاية كلّ أسبوع أُجرة المياه التي نستهلكها من بئره، أسلّمها له حالًا ودون تأخير.

أُساعد أمّي كلّما توفّر لي وقتٌ لذلك، عقب عودتي من الدّراسة أحملُ مجرفةً وأُعينها على سقي الأشجار، نُزيح الطّمي والحجارة من طريق المياه التي تجري في السّاقية نحوها، وأحيانا نسدّ الطّريق أمامها كي نمنعها من الجريان نحو الأشجار التي تكون قد أخذت نصيبها كفايةً من السّقي، وحتّى نُتيح للّتي لم تُسقَ بعدُ من أن تصلها المياه، أحرص على أن أخبر أُمّي عن كيفية عمل ذلك، فقد تعلّمتُ من مشاهدتي لأبي طريقةَ سقي الأشجار.

***

لم يبقَ في صُرّة النّقود التي تُخبئها أمّي في الخزانة فلسٌ واحد، أنفقنا كلَّ ما نملكه على مصروف البيت وكانت مراسم عزاء أبي قد أخذت جزءا كبيرا منها، أمّا القسط الأوفر فقد ذهب مع سقي أشجار الزّيتون واللّوز، حيث أنّ الشّتاء في هذا الموسم كانت أمطارُه شحيحة ولا تكفي لِريّه على الوجه المطلوب، لم تجد أمي من بدّ، كان لِزاما علينا أن نضحّي بنعاجنا العشرة ونبيعها في السّوق، حتّى نتمكّن من توفير بعض المال لنُواجه به مستلزمات الحياة ومصاريف دراستي أنا وأختي، تفادت أمّي أن تبيع عجلانِ كانا لا يزالان صغيران يرضعان أمّيهما، سوف لن يجلبا لنا الشّيء الكثير، يحتاجان بدورهما إلى جانب البقرتين لبعض المصاريف من علف وتبن وكلأ.

لم يزرع أبي في الخريف قبل وفاته القسم المخصّص للحبوب من الأرض، فضّل أن ترتاح إلى السّنة القادمة فقد زرعها في العامين الماضيين، سوف لن يكون لدينا مع الخريف القادم ما ننتظره سوى بستان الزّيتون

واللّوز، ماذا سيكون عليه الحال لو كان محصوله لا شيء؟ دفعتني مخاوف أمّي وهي تطرح أمامي هذا السّؤال لأن أجد فكرة تجعلنا نتفادى وُقوع الأسوأ.

مع حلول نهاية الأسبوع تملأ أمّي قفّةً كبيرة بما لذّ وطاب من الأطعمة التي تدأبُ على طهيها وانضاجها إلى ما بعد منتصف النّهار، بعدما تُنهي أشغالها المنزلية التي تتراكم فوق تعبها المُمض في الحقل طوال اليوم، كنت قد اقترحت عليها أن أبيع بعض المأكولات الخفيفة التي تصنعها بيديها في مُنتزه الصّفا، الذي يقصده الزّوّارُ من القرى المجاورة ومن مدينة الخليل.

كانت نسائمُ باردة تغمر المنتزه الذي يعجّ بالنّاس في يوم ربيعي قارص، استبقَت أمّي ذلك وغطّتني بمعطف صوفي تعتليه قلنسوة ويتدلّى طرفاه إلى ركبتيّ، وقبل أن أخرج ألقت بجزمتي التي خبّأتها مع نهاية الشّتاء أمام قدميّ عند ردهة البيت، يبدو أنّني لازلت بحاجة لها حتى مع انتصاف فصل الرّبيع، انتعلتُها وخرجت وأنا أخنق بيديّ مِقبضيْ القفّة الثّقيلة والممتلئة، فكنتُ أحملها أمامي بصعوبة، وأضعها على الأرض كلّما شعرت بألم يُقطّع أصابعي التي ترتسم عليها خطوط حمراء، أنفخ في قبضة يديّ وأدعكُهما بعضَهما ببعض حتّى يزول الألم، ثم أستأنف مسيري إلى الموقف في نهاية الطّريق التّرابية.

ما إن بلغتُ بوّابة المنتزه، حتّى لمحت من خلالها زميلي يوسف برفقة والديه وإخوته يتجوّلون بالدّاخل، في البداية شعرتُ بالإحراج فارتبكت وترددّت لبعض الوقت، لم يسبق لي أن وجدت نفسي في هذا الموقف

المعقّد والمغاير لطبيعة معيشتي من قبل، بدوتُ كمن أرغمته الفاقةُ لحمل جزء من قُوت عائلته وعرضه على المرفّهين، الذين فاضت أوقاتهم وزادت أموالهم عن حاجتهم، حتّى خرجوا يقضونها وينفقونها في المنتزه بصحبة أبنائهم، أحسستُ بمعنى اليُتم لأوّل مرّة منذ أن فقدت أبي، وأنا أشاهد الآباء والأمّهات يدلّلون صغارهم ويعطفون عليهم، ولا يردّون لهم طلبا في ركوب أُرجوحة السّفينة العملاقة أو الصّعود إلى لعبة السّلاسل التي تدور بهم حول محور ثابت، ترقرقت دمعةٌ من عيني وسالت على خدّي البارد، شعرتُ بخطّ ساخنٍ يشقّه، تذكّرتُ أمّي وأختي وحاجتَنا لمصدر رزق حتّى نعيش منه، وأنّني رجلُ البيت بعد أبي كما تقول لي أمّي دوما، وجدتُني قد اجتزت بوابة المنتزه دون أن أشعر، وضعتُ القفّة بين رجليّ، مسحت دموعي وطفِقت أنادي:

- كبّة، فلافل طيبة، منقوشة لذيذة... يا الله قرّبوا... تفضّلوا...

وما إن جلست على حافّة رصيفٍ بالقرب من ممشى يرتاده المتنزّهون بكثرة، تحفُّه أشجار الصّنوبر التي تملأ المكان، وباعدت بين مقبضي القفّة وأزحتُ قطعة قماش كانت أمّي قد غطّت بها الأطعمة التي يسيل لرؤيتها اللّعاب، وتستثير رائحتُها الشّهية كلَّ من يشتمّها وتُحفزّه على التهامها، حتّى انهال عليّ النّاس من كلّ حدب وصوب، بمجرّد أن وقعت أعينهم على أطايبَ قلّما يرونها في ذلك المكان، فوقفوا يحاصرونني من كلّ جانب ويطلبون منّي أن أُناولهم ما يشتهون هم وأبناؤهم، ولم تمرّ سوى بضعة دقائق حتّى كنت قد خرجت من المنتزه قافلًا إلى البيت

وأنا أهزّ القفّة فارغةً في يدي، وقبل أن أتجاوز البوّابة نحو الخارج سمعتُ أحدهم ينادي من خلفي:
- هاااي... يا فتى... انتظر.
تلفتُّ كي أنظر إن كان النّداء يعنيني، فوجدتُ صاحبه يلوّح لي بيده ويهرول باتّجاهي، توقّفت بعد أن استدرتُ نحوه وأنا أفكّر في سبب إيقافه لي؛ هل نسيَ عندي الباقي من نقوده التي قدّمها لي حينما اشترى منّي؟ أم تُراني أنا الذي نسيتُ أن أُطالبه بثمن ما أكله؟ وجدته قد وقف أمامي وهو يبادرني بسؤاله منهيًا تخميناتي:
- هل تستطيع والدتك أن تصنع حلويّاتٍ لذيذةً، كتلك الأطعمة التي تذوّقتُ منها قطعةً قبل قليل؟
- بالتّأكيد... لكن لماذا؟
- هل بوسعك أن تُحضر لي قفّة من الحلويّات، مثل هذه، يومًا بيوم إلى كشكي هناك؟
نقلَ الرّجل إشارته بيده من القفّة حينما أراد أن يوضّح لي حجم طلبيّته إلى كشكٍ تتناثر بالقرب منه بضعُ طاولاتٍ تحيط بها كراسيها، بدا لي كمقهى صغير، قلتُ له على الفور والبهجة تغمرني:
- بكلّ تأكيد يا سيّدي.
غادرتُ المكان وأنا اشعر بأنّ قدماي لا تحملاني، وكأنّني أُحلّق فوق الأرض من فرط سروري بالصّفقة التي عقدتُها مع صاحب الكشك.

# (4)

# محنٌ تصنعُ من الأطفال رجالا

لم أكن أحصِّل بعدما تفرغ القفّة سوى على بضع أوراق نقديّة، فوق ما تنفقه أمّي على صنع تلك المأكولات الخفيفة والحلويّات اللّذيذة إلى جانب تعبها المضني، الذي لا يكافئه ما أجنيه مهما كان وفيرا، حتّى وأنا أعود إليها مهدود الحيل مع اقتراب مغيب الشّمس.

في أحد الأيّام وحال عودتي إلى البيت وجدت خالي حسين بالدّاخل، كان قد ركن سيارته غير بعيد عن إسطبل الأبقار، خمّنت بأنّه عندنا قبل أن أراه جالسا في المطبخ مع أمّي يتجاذبان أطراف الحديث، عندما دخلتُ المنزل كان كلامُهما يسمع من الرُّدهة حتّى قبل أن أفتح الباب، فجأةً صمتا حينما لمحاني وأنا أجتاز عتبة المطبخ، كما لو أنّهما لم يرغبا في أن أسمع ما يقولانه، سلّمتُ على خالي وقبّلتُ يد أمّي، وضعت القفّة على المنضدة وخرجت سريعا، بعدما شعرت أنّه غيرُ مرحّب بي في حوار الكبار، أو هكذا بدا لي، وجدتُ أنّه من اللّباقة أن أتركهما يتكلّمان على راحتهما. لم يطل المقام بخالي عندنا، سمعتُه يودّع أمّي مغادرا بينما كنت مستلقيا على سريري في الغرفة لأرتاح من تعب بيع المأكولات سائرَ يومي.

لمحتُ تردّدا في عيني أمّي وهي تقف أمامي، وفي شفتيها كلامٌ حين دخلت الغرفة وقَطعتْ عليّ خلوتي دون أن أشعر بخفق رجليها، قلت لها وأنا أُشجّعها على الكلام:

- كيف هي أحوال خالي حسين؟
- بخير، جاء ليقترح عليّ أمرا بعدما طلب منه أخوالك ذلك، لقد فاتحَ فيه أعمامك أيضا ورحّبوا بالفكرة.
- وما هو هذا الأمر يا أمّي؟
أجابت أمّي بتردّد وهي تنتقي كلماتها التي كان يُحاصرها ريقُها فتبتلعه بمشقّة:
- لقد... أأأ... إنّهم... يريدون منّا أن نسكن في الخليل بالقرب منهم... تعرِف... نحن هنا غرباء نعيش لوحدنا... ماذا لو حدث لأحدنا مكروه؟ أو...
بدت أمّي وهي تنقُل إليّ كلام خالي وكأنّها غير مقتنعة به، أو أنّها تعلم مسبقا ردّة فعلي إزاءه، فظهر الارتباك في حديثها معي، قلت لها قاطعا تلعثمها، فصمتت مصغية لكلامي بانتباه شديد:
- ونترك أرض أبي! وكيف سيكون عليه الحال إذا استولى عليها الصّهاينة في غيابنا؟
- لن نغادرها حتى نبيعها لفلسطينيّين مثلنا يا ولدي، وهكذا سنضمن أنّها ستكون في أيد آمنة.
- لن يحدث هذا يا أمّي طالما حييت، لن أتنازل عن أرض أبي وأجدادي، بإمكاني أن أشتغل كلّ يوم فور عودتي من الثّانوية ولن أترك الدّراسة مهما حصل.
- وماذا ستجنيه من بيع السّندوتشات... بضعُ أوراق نقدية لن تكفينا ليومين حتّى.

- سنتدبر أمورنا ريثما يفرجها الله علينا.
- اسمع يا ولد، لقد قرّر الكبار وحسموا في الأمر، سنبيع المزرعة ونشتري بيتا في الخليل.
نهرتني أمّي بحزم محاولةً حسم الموقف وإنهاء جدالي لها بلهجة حادّة وصوت مرتفع، خرجتُ عند ذاك من البيت وأنا أصيح مردّدا في غيضٍ مرير:
- أقسمُ أنّه لو حدث ذلك فسأُلقي بنفسي في البئر وأموتُ كما مات أبي.
ركضتُ نحو البئر فلحِقتْ بي أمّي، وحينما أشرفتُ على حافّته تظاهرتُ أمامها بأنّني سأرمي بنفسي إلى قاعِه، ترجّتني وهي تستغيث:
- لا... أرجوك سمير لا تفعل، كن عاقلا بنيّ... لا تتركني وحيدة... ليس لي أحد غيرك في هذا العالم الموحش.
بدأتْ أمّي تبكي، انهمرتْ دموعها على خدّيها، جثتْ على ركبتيها وغرستْ وجهها بين يديها، أشفقتُ عليها عندها، غير أنّني خفتُ أن تنصاع مجدّدا لرأي أخوالي وتوافق على بيع الأرض، فقلتُ لها مشترطا:
- سوف لن أُلقي بنفسي في البئر، لكن بشرط... أن لا تُعيدي مفاتحتي في هذا الموضوع ثانيةً.
- حسنا يا ولدي... لن يكون إلّا ما تريده، فقط عد إليّ ولا تفجعني فيك، يكفيني ما أنا فيه بعد فقد أبيك.

تراجعتُ إلى الخلف، ومشيت ناحية أمّي، أمسكتُ بيديها وساعدتها كي تنهض وقبّلتُ يُمناها، ثم جثوتُ عند قدمها ألثمُه وقلتُ لها متوسّلا والدّموع تنثالُ على خديّ:

- أرجوكِ يا أمّي لا تدعيهم يبيعون الأرض التي مات أبي من أجلها.

***

كنت لاأزال أتدثّر بكساء فوق فراشي حينما نهضتْ أمي باكرا، سمعتُ باب البيت وهو يُفتح، ثمّ أُغلق، خرجتُ خلفها، كان اللّيل لا يزال جاثما فوق مساكن الخربة ومزارعها حينما وقفتُ عند الباب في الخارج، التفتُّ عن يميني حيث يوجد إسطبل الأبقار، لمحتُ الضّوء الصّادر من نافذته يخرق غِشاوة اللّيل المتأهّب للرّحيل في الجوار، اقتربتُ من الإسطبل فإذا بي أسمعُ صوت وقع الحليب داخل السّطل، فأدركتُ أنّ أمّي تحلب بقرةً، لم أشأ أن أُربكها فَوقفت مختبئا عند الباب ولم أدخل، ظللتُ أرقبُها خلسةً عنها حتّى أنهت حلب البقرتين وأطعمتهما، وأرضعت عجلاها، وحين أيقنتُ أنّها ستخرج من الإسطبل عدتُ إلى المنزل وأنا أمشي مسرعا على أطراف أصابعي، كي أسبقها إلى الدّاخل دون أن تسمع وقع قدمَيّ، تسرّبتُ داخل فراشي كثعبان، سمعتها حين وصلت إلى المطبخ، راحتْ تعبثُ بالأواني داخله، تسحبُ أشياء وتدفعُ أخرى، تصطكُّ الفناجين والملاعق من بين يديها فتُحدِث جلبةً خافتة من خلف باب المطبخ، كانت قد أغلقته حتّى لا تزعج نومنا، عرفتُ أنّها تحضّر فطور الصّباح، كان ضوء الفجر قد بدأ يتسرّب من نافذة الغرفة، فجأة سمعتُ صوت تكسّر إناءٍ زجاجي، قمتُ من

فراشي مسرعا إلى المطبخ كي أستجليَ الأمر، وجدتُ أمّي مُقرفِصةً أمام منضدة المطبخ، تُمسكُ بيدٍ حافّتها الإسمنتية وتشدّ صِدغيها بالأخرى، شعرتُ بالخوف عليها من أن يكون قد أصابها مكروه، اقتربتُ منها، جلستُ بجانبها ووضعتُ يدي على ظهرها وسألتها بإشفاق:

- أمّي ما بك؟

- لا شيء بنيّ... أشعرُ ببعض التّعب، صداعٌ خفيف فقط.

- يجب أن نذهب إلى الطّبيب فورا.

- لا داعي لذلك.

قلتُ لها وقد خطر ببالي أن أوقظ أختي سلمي لتبقى إلى جانبها، وأذهب عند عمّي أبو مروان والد صديقي، كي ننقلها إلى المستشفى خشيةً من أن تحدُث لها مضاعفات:

- سأعود حالا.

بعد عودتي برفقة عمّي أبو مروان الذي تجشّم عناء النّهوض من فراشه واتّجه نحو گاراج سيارته وأدار محركها، وجدتُ أمّي على حالها، سألتُ سلمى إن كانت على ما يرام، فأخبرتني بأنّها شعرت بالغثيان وقاءت في حوض المطبخ، طلبتُ منها أن تساعدها في إحضار ملابسها من الخزانة، حتّى تُهيّئ نفسها وتستعدّ لنذهب إلى المستشفى، أخبرتُ أمّي أنّ عمّي أبو مروان ينتظرنا بسيارته في الخارج كي يُقلّنا إلى مستشفى عالية بمدينة الخليل.

تركْنا أمّي تدخل لوحدها وجلسنا ننتظرها في غرفة فسيحة، يستلقي على كراسيها الملتصقة بالجدران رجال وأطفال، فجأةً خرجتْ وأطلّتْ

بداخل غرفة الانتظار لَمحتني حين كنتُ شاردا أُطلّ من النّافذة، نادتني، وحين أقبلتُ عليها قالت لي:

- عليّ مراجعة طبيبة قسم النّسائيّة والتّوليد، هكذا أشار عليّ طبيب مصلحة الاستعجالات.

خرجنا من الاستعجالات سريعا واتّجهنا إلى قسم النّسائية والتّوليد، انتظرتْ أمّي طويلا حتّى حان دورها للمعاينة عند الطبيبة، لم تمكث عندها مطوّلا حتى خرجتْ من باب القسم بوجه جمعتْ ملامحه بين الاستغراب والفرح، تركتُ عمّي أبو مروان واقتربتُ منها محاولاً معرفة ما يحصلُ معها، بعدما أصبح الأمر يتطلّب فحوصاتٍ تتعلّق بمسائل الولادة، همستْ أمّي في أذني مبدّدة حيرتي:

- تقول الطّبيبة أنّني حامل.

لم أُخفِ ابتهاجي ودهشتي، فِعلًا يبدو أنّ ملامح أمّي وهي تخرج من عند الطّبيبة كانت على حقّ فيما اعتراها من تغيّر، اغرورقت عينا أمّي بالدّموع، لاحظتُها تتساقط كحبّات اللّؤلؤ من أهدابها المثقلة بها، قلتُ لها مستعجبا:

- ما الذي دهاك يا أمّي، هذا خبر مفرح فلِمَ البكاء إذن؟!

قالت بصوت تكتمُه العبرات، محاولةً بمشقّة إزاحته من حنجرتها المختنقة بابتسامة مشرقة:

- تذكّرتُ أباك الله يرحمه... تمنّيت لو أنّه كان معنا في هذه اللّحظات السّعيدة.

في حياته كان أبي يحمل أعباءَ كبيرة وكثيرة، أدركَتْ أمّي بعد وفاته حجمها، صار من غير الممكن أن تقوم بما كان ينجزه من أعمال شاقّة لا يقدر على فعلها سوى الرّجال.

أخذتْ أمّي بنصائح الطّبيبة لها بضرورة أخذ قسط وافر من الرّاحة وتجنّب التّعب والإرهاق، فأصبحتْ تكتفي بأشغال المنزل التي كانت تُنجزها بصعوبة، لم يعد الوقت يكفيها للعناية بالبستان أيضا، ومع مضيّ الوقت أهملنا بستان اللّوز والزّيتون الذي كان أبي يحرص على سقيه، وتشذيب أغصان أشجاره والتخلّص من الأعشاب الضّارة التي كانت تتكاثر حول جذوعها فتُحاصرها حتّى تخنقها.

ازدادت الأمور سوءا منذ أن أصبحتْ أمّي طريحة الفراش وقليلة الحركة، أصررنا عليها أنا وسلمى أن تلتزم بإرشادات الطّبيبة حفاظا على جنينها، كنّا قبل مرضها في حاجة ماسّة إلى المال فبعنا كلّ ما نمتلكه من نعاج، لم يتبقّ معنا منذ ذلك الوقت سوى مبلغ قليل بعدما أنفقنا على علاجها، خشِيتُ أنّه بعد نفاد ما بحوزتنا ألّا نجد ما نصرف به على معيشتنا، كان الوقت لايزال بين يديّ حتّى أفعل شيئا كي لا نخسر موسم جني اللّوز والزّيتون أيضا.

***

في أحد أيّام الرّبيعِ وبينما كنت نائما، سمعتُ في الصّباح الباكر طرقًا على الباب وصوتَ عمّي أبو مروان يناديني:

- سمير.. سمير..

نهضتُ من فراشي ولبست ثيابي وفتحت الباب، وجدتُ مروان بجوار أبيه يحملان عُدّة تقليم أغصان الأشجار وتشذيبها، أدخل عمّي أبو مروان يده تحت طاقيته، حكّ جلدة رأسه الحليق، تنخنح ثم قال لي:

- اليوم سيتعاون أهل الخِربة من أجل تقليم أغصان أشجار بساتينهم، عليك أن تستعدّ، اسبقنا إلى حقلكم سنمرُّ عليك بعدما ننتهي من أشجار بستاني، هذه عملية مهمّة حتّى يكون الإنتاج وفيرا في الخريف القادم، لقد مررتُ على بستانكم قبل قليل ولاحظتُ أنّه بحاجة لذلك أكثرَ من بقيّة البساتين، فروع الأشجار وأغصانها يابسة وجافّة ومتزاحمة ومتشابكة.

- حسنا عمّي أبو مروان، ستجدونني أمامكم، أشكرك على معروفك.

- لا شكر على واجب يا ولدي، سيرافقك مروان، بإمكانكما أن تُمضيا وقتا ممتعا ريثما نصلِ عندكم.

لن أنسى ما حييتُ جميل عمّي أبو مروان وصنيعه معنا، ما إن انقطع هطلُ المطر مع نهاية الرّبيع حتى بدأ في ملء حوض مياهنا دون أن يطالبنا بمقابلِ ذلكَ، قال لي بدعابة أنّه سيقبض ثمنه منّي حال بيعنا للمحصول في الخريف، أخبرني أنّه خشي أن يفوتنا سقيِ الأشجار في موسم الحرّ، وأنّ ذلك سيؤثّر سلبا على كميّة المحصول وجَودته، شعرتُ بأنّني صرت رجلا وأنّني صاحب البستان بكلامه معي على هذا النّحو، كان شعورا مختلطا بإحساسٍ بثقل المسؤولية التي عليّ تحمّلها، وعدم التّفريط في الاهتمام بشؤون المزرعة أثناء مرض أمّي.

في نهاية الأسبوع التي تلت ذلك، وقبل أذان الفجر الثّاني بدقائق، بينما كنتُ أغطّ في نوم عميق سمعت جلبةً بالخارج، كانت أصواتًا لم

أعهدها منذ انتقلنا للعيش في خِربة الصّفا، أعادتني إلى أيّام كنّا نسكنُ في حيّ رأس الجوزة بمدينة الخليل، كنت أسمعها من نافذة غرفتي حين تمرّ مع الصّباح الباكر شاحنةُ القمامة، يتشبّث بمؤخرتها مجموعةٌ من العمّال الشّباب يتجاذبون أطراف الحديث، بينما يحملون أكياس القمامة من أمام البيوت، ويقلبون حاويّاتها الموضوعة بأماكنها المخصّصة في صندوق الشّاحنة الذي يلتهمها آليا وبشراهة عجيبة.

انسحبتُ من فراشي واتّجهت نحو الباب أتحسّس الأصوات، تفاجأت حينما عرفتُ بعضها قبل أن أخرج حتّى، إنّهم زملائي يوسف ورؤوف وأمجد وبشير وجمال ورضوان، فتحتُ الباب وقلت في دهشة لا تخلو من الاستغراب:

- ماذا تفعلون هنا؟

- أهكذا ترحّب بضيوفك؟

أجابني مروان بينما كان يُخفي ضحكة خلف شفاهه التي انفلتت أزِمَّتها، فانفجر مواصلا دعابته بالطّريقة ذاتها التي يُلقي بها خُطَبه علينا:

- لقد جاء القومُ ليتضامنوا معك، ويساعدوك في نكش البستان وتقليم الأشجار.

فهمتُ أنّ مروان أخبرهم بوضعي فاتّفقوا معه على مساعدتي في العناية بالبستان، لاحظتُ أنّهم جاؤوا مدجّجين بمجرفات ورفوش ومعاول، وقد استعدّوا جيّدا للعمل، بدا ذلك جليّا من ثيابهم التي كانوا يختبئون بداخلها كفلّاحين حقيقيّين، في هذه الأثناء وقفتْ أمّي عند الباب مستندةً على أحد مصراعيه لا تُخفي دهشتها من رفاقي، سُرعان ما أتبعتها

بابتسامة حينما التفتُّ إليها وقدّمتُهم لها بكلتا يديّ، وبِتفكُّهٍ جعل أصحابي يتلوّون من الضّحك ويُمسكون ببطونهم:

- كما ترين يا أمّي... قطيعٌ من الأصدقاء.

- لا يا ولدي لا تقل ذلك عنهم... إنّهم أسُود... ما شاء الله عليهم.

ابتهجتُ كثيرا لمقدم أصدقائي الذي بدّد مخاوفي من تفريطي في نكش البستان، وتشذيب أشجاره وتنظيفه من العيدان والأغصان المرميّة بداخله، انتشرنا في الحقل كما الجراد وانقسمنا إلى فرقتين، فرقةٌ تكفّلت بإزالة الحشائش كان يقودها رؤوف، وأخرى كان أفرادُها يحملون قاطعاتٍ بأيديهم، أخذوا على عاتقهم تقليم أغصان الأشجار المتبقيّة وتنظيفَ البستان، يتقدّمهم مروان الذي يمتلك خبرة في ذلك، في الأثناء راحتْ أمّي تُعدُّ لنا الطّعام على الرّغم من كونها لم تشفَ تماما من تعبها، غير أنّ رؤيتها لأصدقائي وهم يتكاتفون معي في محنتنا جعلتْها تشعرُ بخفّة عجيبة أنستْها محنتها، هذا ما أسرّتْ لي به فيما بعد.

# (5)

# الأزمة تلِد الهمّة

تعافتْ أمّي كليّةً من مرضها الذي تسبّب فيه إرهاقِها المتزامن مع حملها، ومع تحسّن حالتها الصّحية لاحظتُ أنّ شرودها قد زاد، فهمتُ أنّ ذلك بسبب قلّة المال في يدها، فقد أنفقنا جزءا منه على علاجها وعلى مصاريف البيت، لم يعُد بإمكانها تحضير المأكولات الخفيفة والحلويات من جديد، حيث أنّ ذلك يتعارضُ مع نصائح الطّبيبة لها بلزوم الرّاحة وتجنّب الإرهاق، ولا يكاد يتبقّى لدينا سوى بعضُ الأوراق النّقدية التي تترصّدها حاجاتُنا في الأيام القادمة كضباع مفترسة حتّى تقضي على آخر فلس فيها، وحينها سوف لن نجد ما نُجابه به ظروفًا صعبة ستنتظرنا حتما، وهي تنشب مخالبها في وجوهنا الفزِعة.

قرّرَتْ أمّي أن تبيع مصوغاتها الذّهبية، أرادت أن تضع بذلك حدّا لتفكيرها العميق، الذي التهم ملامحها المبتهجة بعد أن تحوّلت إلى أشباح تطوف في أرجاء البيت، قالت ذلك بنبرة متحمّسة أزالت عنها هواجسها السّامّة، وكشفت لي عمّا توصّلت له كحلٍّ للخروج من أزمتنا:

- سنشتري بثمن القطع الذهبيّة آلةً لحياكة الملابس الصّوفيّة.

أخبرتني أمّي أنّه لن يكون بوسعها تحمُّل مجهود صنع المأكولات الخفيفة والحلويّات مجدّدا بعد كلّ ما حدث لها، سوف يكون بمقدورها الجلوس خلف آلة الحياكة وتحريك مقبضِ قطعة حديدية تتزحلقُ فوقها جيئةً وذهابًا، بعد أن تُلقِمها خيوطًا صوفيّةً، وستُنجزُ الآلة الباقي

لوحدها، لن تمرّ سوى بضعةُ أيّام كي يصبح بين يديها، قميص صوفيّ أو ثوبٌ لطفل، أو قُفّازات دافئة.
مع نهاية الشّهر أحملُ ما تصنعه أمّي من ألبسة صوفيّة إلى محلٍّ في وسط مدينة الخليل، صاحبُه أبو منصور من معارف أبي، يُمسكها من بين يديَّ دون تردّد، يبدو أنّه سمع من أحد أعمامي بأزمتنا بعد وفاة أبي، يحملُ التّاجر الملابس ويضعها على الرّفوف بحسب صنفها، ثمّ يُدخل يده في دُرجِ مصرف خشبيّ ويسحبُ منه مجموعة من الأوراق النّقدية يُناولني إيّاها، أضع نصفها في جيبي، وبما تبقّى أدخلُ إلى محلّ غير بعيد عن المكان، يعرضُ صاحبُه للبيع أدواتِ الخياطة، فأشتري بالنّقود كُراتٍ من الخيوط الصُّوفية لتبدأ بها أمّي رحلتها الشّهرية في حياكة أثوابٍ جديدة، وبهذا تكتملُ دورةُ صناعة الملابس التي امتهنت أمّي حِرفتَها مرغمة.
لا تكاد النّقود التي أضعها في جيبي في محلّ عمّي أبو منصور تكفي لشراء مؤونة شهرٍ واحد من حاجياتنا المنزلية، بالإضافة إلى نفقاتنا على الدّراسة، كنتُ أُلاحظ ذلك في كلام أمّي التي تتحسّر كثيرا على كونها تبذلُ جهدا مضاعفا لصنع أكبر عدد من قطع الملابس الصّوفية، غير أنّ ذلك لا يكفي لسدّ احتياجاتنا، كما أنّه لايزال يفصلنا عن الخريف الذي ننتظره بفارغ الصّبر حتّى نقطف الزّيتون واللّوز ونبيع محصولهما فصلٌ كاملٌ.. ثلاثةُ أشهر بتمامها، يا لها من مدّة طويلة.
كانت عطلة الصّيف على الأبواب، أنهينا الامتحانات وحصلتُ أنا وأختي سلمى على معدّلات جيّدة أهّلتنا لنحتلّ مراتب متقدّمة في

صفّيْنا، أسعدَ ذلك أمّي كثيرا، كان بطنُها قد بدأ يبرز ويتكوّرُ أكثر وحركتُها تثقلُ بصورة متزايدة يوما بعد يوم، في أحد الأيام اتّفقتُ مع سلمى على أن نُخفّف عنها تعبها في حياكة الملبوسات وفي أشغال المنزل، قالت لي سلمى:

- سوف أشتغلُ على الآلة من اليوم فصاعدا لن تضطرّ أمي لإرهاق نفسها، لقد تعلّمتُ كيف أُديرها من مراقبتي لها بينما تعملُ عليها، وحتّى إن احتجتُ إلى مساعدة فيكفي أن تُوجّهني دون أن تُتعب نفسها.

فرحتُ كثيرا لما سمعته من أخبار سارّة من سلمى، بدا لي رغم أنّها لم تتعدَّ الثّالثة عشرة من عمرها، أنّه أصبح بمقدورها مشاركتنا بما تستطيع القيام به، قلت لها متفائلا:

قريبًا سوف نجتاز هذه المصاعب بإذن الله، أصدقائي يساعدونني في سقي البستان، وهو في حال جيّدة، قال لي عمّي أبو مروان بعد أن رأى ثمار اللّوز والزّيتون، أنّ المحصول سيكون وفيرا بإذن الله حينما ينضجُ ويصبح جاهزا للقطاف.

التفتّ إلى سلمى وأنا أشعرُ بأنّ عينيّ تتلألآن، على الوجهِ الذي كنتُ أرى به عينيْ أبي، وهما تُشعّان حماسةً وتتوقّدان عزيمةً، قلتُ لها:

- سوف أشتري الحلويات الجاهزة والمكسّرات من الخليل، وأبيعها في المنتزه خلال فصل الصّيف، وبهذا سأشغَلُ وقتي وأُعينُ أمّي على تأمين مصروف للبيت.

- هذا جيّد يا أخي، سوف نُحافظ على أُسرتنا قويّة ومتكاتفة، مهما تكن قسوةُ المحن.

***

على شجرة الأحلام كتبتُ حلمي الرّابع، هذه المرّة سبقتُ مروان ودوّنته قبله: "سأكتب أُولى رواياتي في العام القادم"، ثمّ ناولتُ مروانَ المسمارَ، فكتب: "في العام القادم سأتحصّلُ على أعلى مجموع في الثّانويّة العامّة"، التفتُّ إليه وقلتُ له مبتسما:

- ألا ترى أنّنا نُبالغُ بعض الشّيء فيما نكتبُه؟ إنّها عبارات تبدو كالحقائق وليست مجرّد أحلام.

- بالضّبط هذا ما أُفكّر فيه، نحن لا نحلم، نحن متيقّنين من طموحاتنا ونُؤمنُ بأنّها ستحقق يوما ما بإذن الله، من اليوم سنسمّي شجرتنا هذه شجرةَ الحقائقِ.

- هذا ما ينبغي أن يكون.

قبل أن نُغادر المكان اقترح عليّ مروان أن يشاركني في مشروعي الذي أخبرتُه عنه لمساعدة أمّي، قال لي أنّ عليه هو أيضا أن يمرّ بتجربتي ليتعلّم منها ما تعلّمتُه كي يعتمد على نفسه، حتّى وإن لم يكن بحاجة للمال، حيث أنّ عمّي أبو مروان يكفيه عناء ذلك، أكّد لي كلامه:

- في العام القادم سأُكمل ثمانية عشرة سنة، عليّ أن أُجرّب كيف يكسبُ النّاسُ معاشهم، سوف أكفي والدي حِمل توفير مصاريف دخولي المدرسي القادم من ملابس ولوازم.

بعد أن اتّفقتُ مع مروان على العمل معا، صرنا نقتني بضاعتنا من الخليل ونُعيد بيعها في مُنتزهَيْ الصّفا صباحًا والكرمل مساءً، ننهضُ

باكرا لنتوجّه إلى سوق خان شاهين، نشتري ما يلزمنا من حلويات بأنواعها ومكسّرات على اختلافها.
في إحدى المرّات استوقفَ حاجزٌ أمنيّ الحافلةَ التي كانت تُقلُّنا، قبل أن نخرج من الخليل، صعد جنديان مسلّحان إلى الحافلةِ وبدآ في تفتيش الرّكاب، كانا يُقلّبان الأمتعة الموضوعة على رفٍّ فوق رؤوسنا، ويرميانها في الرِّواق الفاصل بين الكراسي، يتفحّصانِنا وكأنّهما يبحثان عن أشخاص بيننا، طلب منّي أحدهما بعدما تفرّس جيّدًا في ملامحي أن أقف، فتّشني ثمّ أمرني بالنّزول، بدأ الأطفال والفتيان في مثل سنّي يهبطون من الحافلة تباعا، رأيتُ مروان ينزل هو الآخر، كنّا تسعة، جميعنا ما بين الخامسة عشر والثامنة عشر من العمر، سَرتِ الدّهشةُ والحيرةُ في وجوهنا، بدأ بعضنا في الوشوشة في ما بينهم متسائلين عن سبب إنزالنا من الحافلة.
تقدّم أحد العساكر برتبة ضابط نحونا، كان يحمل بيده وثائق قدّمها له سائقُ الحافلة، أمر أحدَ الجنود بإنزالِ أمتعتنا من صندوق الحافلة، وما إن فتحه حتّى بدأ يرمي بأيّ شيء كانت تصادفُه يداه، دون اعتبار لما قد تحتويه الأمتعة من أشياء من الممكن أنّها تتكسّرُ أو تتعرّض للتّلف، طلب من الجميع أن يتناول كلُّ واحدٍ منّا أمتعته ويضعها أمامه ويفتح الحقائب والأكياس، اقترب منّي جنديان وشرعا في إفراغ جميع محتويات كيسيْن مملوئين بالبضاعة التي اشتريتها أنا ومروان من السّوق، أمسكني أحدهما من خِناقِي وصاح في وجهي:
- أين تأخذ هذه البضاعة؟

- أريد أن أبيعها في منتزه الصّفا.
قلتُ له ذلك بعدما انتشلتُ يديه من ياقتيْ جاكيتي اللتين كانتا متشبثتان بهما، ثمّ أردف سائلا:
- هل لديك تصريح بذلك؟
- لا... لا أملك تصريحا.
أمرني الضّابط بالصّعود إلى الحافلة، وعندما طلبتُ منه أن يسمح لي بجمع بضاعتي التي ألقاها الجنديان على حافّة الطّريق، وأُعيدها داخل الكيسين رفض ودفعني حتّى سقطت على الأرض، وبدأ يدوس برجليه الحلويّات والمكسّرات، شعرتُ بالإهانة والظّلم، ركبتُ الحافلة وغُصّة خانقةٌ تسدُّ حلقي، اجتاح كياني قهرٌ كئيبٌ واعترى جوانحي إحساسٌ بالغربة رغم أنّني أعيش في بلدي، تذوّقتُ لحظتَها طعم الاحتلال البشع وشاهدتُ بأمّ عيني قسوته.
تبعني بقيّة الأطفال والفتيان يملؤهم تذمّرٌ وسخط عارم ممّا لاقوه من الجنود الإسرائيليين، عاد مروان ليجلس إلى جانبي، وجدَني مُحتقِن الأنفاس، ما إن وضع يده على كتفي حتّى انفجرتُ باكيا، طوّق رقبتي بذراعه وضمّ رأسي إلى صدره مواسيا:
- لا تجزع يا صديقي.. سيعوضّنا الله عن كلّ ما ضاع منّا.
حاول مروان أن يخفّف عنّي، رفعَ رأسي ونظر في عينيّ، قال لي:
- علّمتني أمّي أن أقول إذا ظلمني أحد: حسبي الله ونعم الوكيل.
***

كان شهر يوليو قد حلّ وملأ الخربة بحرارته الحارقة، قال لي مروان أنّ أحد فتيان الخربة دلّه على شيخ يُدعى أبو ياسين يقطن بخربة طيرة المجاورة، لديه بستانُ تينٍ شوكيّ، وأنّ بعض الفتيان يقصدونه ليشتروا منه، فَيَقْتني كلٌّ واحد منهم صندوقا أو صندوقين ويبيعون الفاكهة في الجوار، اقترح عليّ مروان أن نفعل مثلهم، ونبيع التّين الشّوكي في منتزه الصّفا، سألني بعدما لاحظ تردّدا في ملامحي:

- فكرةٌ جيدة أليس كذلك؟

- وماذا سنفعلُ إذا أوقفنا جنود الاحتلال في حاجز أمنيّ، وطلبوا منّا أن نُظهر لهم تصاريح بذلك.

- لا داعي لأن تقلق من هذا الجانب، لقد كلّم أبي صاحب المنتزه في الموضوع ووافق، قال له أنّه بإمكاننا أن نبيع في مكان مخصّص داخله، وسيُصدر لنا تراخيص بوسعنا أن نُظهرها في أيّ حاجز يستوقِفنا.

- إذا كان الأمر كذلك فلا مانع لديّ.

لم تكن لي سابقُ تجربة في بيع التّين الشّوكي، علاقتي به لا تتجاوز حدود التهام حبّاته اللّذيذة التي أُفضّلها باردةً، شجّعني مروان حينما أبديتُ له عدم معرفتي بكيفيّة تقشيره، أخبرتُه أنّني متخوّف من الارتباك أمام الزّبائن الذين سيكتشفون سريعا قلّة خِبرتي في ذلك، وسيمتنعون عن الشّراء من عندي، أكّد لي أنّ الأمر جدّ بسيط، تماما مثل أكل التّين الشّوكيّ.

في الغد قصدنا مع مجموعة من فتيان الخربة مزرعة الشّيخ أبو ياسين في الصّباح الباكر، وجدنا شبابا يعملون في بُستانه يحملُ كلٌّ واحدٍ منهم

قضيبا حديديا ينتهي بما يشبه الكوب المعدني كان مُلتحما به، حجمه بقدر حبّة التّين تماما، يقوم بإدخال حبّة التّين الشّوكي في الكوب وهي لاتزال متشبّثةً بلوح الصّبار فتلتصق به، ثمّ يدير القضيب ومعه يستدير الكُوب الذي يقطع بحافّتِه حبّة التّين الشّوكي من منبتها في لوح الصّبار لتستقرّ بداخله، ثمّ يسحب القضيب ويستخرج الثّمرة منه ويُعاود العملية ليجمع كمّيّة كبيرة من الثّمار، يضعها على الأرض ويمرّر عليها مكنسة مصنوعة من أغصان الأشجار، كي يتخلّص من الشّوك العالق بها حتّى لا يُؤذي من يقومُ بتقشيره بعد ذلك.

أمضيتُ أنا ومروان فصل الصّيف كاملا في بيع التّين الشّوكي، تعوّدت على تقشيره، كان يكفي أن أضع الحبّة في يدي التي ترتدي قفّازا يحميها من وخز الشّوك، أَحُزُّ طرفيها دون أن أقطعهما كلّية ثم أَشُقُّ الحبّة طوليّا وأنزع القشرة، بدا لي ذلك أشبه بسلخ خروف مذبوح، ضحك مروان من تشبيهي هذا كثيرا.

كانت نتيجةُ بيع التّين الشّوكي طيّبة، تمكّنتُ بما جنيته من نقود من أن أشتري ملابس الدّخول المدرسي ومستلزماته، لي ولسلمى، قدّمتُ هديّةً لأمّي أيضا، شعر مروان بالغبطة حينما وضعنا الصّناديق التي كنّا نستخدمها في بيع التّين الشوكي في زاوية داخلَ كاراج سيّارتهم، على أمل أن نُعيد التّجربة بحُلوها ومُرّها في العام القادم.

عُدنا إلى فصولنا وإلى الدّراسة من جديد، يحدونا عزمٌ أكيد بأن نُثابر في التّحصيل، وأن نجدَّ لنُحقّق أحسن النّقاط ونحصل على أعلى

المعدّلات، نستمعُ جيّدا لنصائح أساتذتنا ونُنجزُ فروضنا وواجباتنا، ونحرصُ على أن يكون سلوكنا حسنا ومنضبطا.

## (6)

# خُفّاشٌ يحومُ حول عُشّنا الهادئ

في الصّباح وفي طريقنا لنركب الباص إلى الثّانوية في بيت كاحل، بدا لي مروان شاردا على غير عادته حينما نلتقي، لستُ أدري كيف أواجهه بذلك وأقتحمُ عليه ذُهُولَه عنّي، ماذا لو كان الأمر يتعلّق بمشكلٍ وقع له في المنزل، هذا شأنٌ قد يخصُّه لوحده وليس من حقّي التّدخل فيه، حاولتُ أن أُلمّح له كي يَبُثّ إليّ مكنوناتِه ويُفصح عن ما يشغَلُه... لكن دون جدوى، حينما رأيتُه قد أصرّ على أن يحتفظ بهمومه لنفسه آثرتُ التّنازل عن خُططي، واكتفيت بالصّمت الذي أطبق علينا نحن الأربعة، إلى غاية التحاقِنا بالفصل، أنا ومروان، متأخّرِيْن بعضَ الوقت.

بمجرد أن نطق أستاذُ آخرِ حصّة في الفترة الصّباحية بما يفيد أنّه بوسعنا الانصراف حيث أنّ الدّرس قد انتهى، حتّى استدار مروان إليّ وقال بصوت خافت كاد أن يُخمده ضجيجُ زملائنا لحظة خروجهم، وأُضْفَت عليه طريقةُ اقترابه منّي ريبةً محيّرة:

- أحتاجك في أمرٍ مهمّ، لا داعي لأن نخرج إلى السّاحة الآن.

شعرتُ بأنّ أفكاري ومشاعري وجميعَ حواسي أصبحت تُصغي بانتباه شديد لكلام مروان، وتترقّب بحذر ما سيصدر عنه، طأطأ رأسهُ هنيهة كأنّما يتثبّت من كلماته التي حملها إليّ ويتفقّد عددها جيّدا، أسرّ إليّ هامسًا رغم أنّ الجميع كان قد خرج ولم يبقَ في القاعة أحدٌ سوانا:

- أين كنت بالأمسِ بعد العصر، بحثتُ عنك في كلّ مكان ولم أجدك؟
- كنت عند خالي حسين في بيت كاحل، أرسلتني أمي إلى هناك لأوصل له بعض الأغراض.
- لقد جاء رجلان إلى منزلكم، كانا يودّان الحديث معك، في البداية لمحتُ سيّارة سوداء تنعطف نحو بيتكم، ظننتُ أنّ الأمر يتعلّق بأحد أقاربكم، شاهدتُ الرّجل الذي يركب بجانب السّائق بينما كان ينزل و...
- آه نعم... نعم تذكّرت، لقد أخبرتني أختي سلمى بذلك، قالت له عند باب المنزل أنّه لا يُوجد أحد بالبيت سوى أمّي، وهي طريحة الفراش بسبب الحمل وقُرب ولادتها، غادر دون أن يترك لها أيّ وصايا.
- لقد التقيا بأبي ساعة مغادرتهما لمزرعتكم، فقد رجعتُ من فوري إلى البيت وأبلغته بأمرهما المريب فخرج ليتقصّى ما وراءهما.
- ألم يقولا له عمّا يُريدانه منّا؟
- صاحبُ السّيارة هو ابن من اشترى منه والدُك المزرعة، قال لأبي أنّه عاد من بولندا ويريد... آآآ..
- ماذا يريد؟ تكلّم يا مروان... لا تُخفي عنّي شيئا.
- قال أنه جاء خصّيصا من هناك من أجل استعادة مزرعة والده.
- يستعيد ماذا؟ كيف؟ ولكنّها أصبحت مزرعتَنا... لقد اشترى أبي الأرض من السّمسار اليهودي بواسطة أحد معارفه الذي يشتغل في كراء وبيع العقارات، والمزرعة مسجّلةٌ باسم والدي.

صمتُّ برهةً وقد تملّكني خوف شديد من نوايا الرّجلين، قال لي مروان وهو يتفرّسُ ملامحي، بدا لي حين التفتُّ إليه أنّه أدرك مدى جزَعي:
- لا تقلق، سوف لن يحدث شيء ممّا تفكّر فيه، في نهاية الأسبوع سنذهب عند خالي أحمد المحامي، إنّه يسكن في الخليل، سنخبره بما حدث وسيتكفّل بالدّفاع عنكم في المحكمة.
خفتُ كثيرا عندما سمعتُ كلمة "المحكمة"، شعرتُ بأنّها تتردّد في أذنَيّ حتّى بعد أن صمت مروان، طلبتُ منه أن يتريّث لبعض الوقت، فَخالةُ أمّي التي ستضعُ مولودها في أيّ وقت خلال أقلَّ من شهر، كما أخبرتني، لا تسمح لها بأن تتحمّل مشاقّ التّردّد على المحاكم، وحيث أنّ خصمنا إسرائيليّ فإنّنا حتما سنتقاضى إلى محكمة يُشرف عليها قضاةٌ إسرائيليّون، من غير المعقول أن يقفوا إلى صفّنا وسيحكمون حتما ضدّنا، حرّك مروان رأسه للأعلى وللأسفل مومئًا بتفهّمه للوضع، وقال:
- حسنا، لكن إذا احتجتم إلى المساعدة فأرجو أن لا تستحي من أن تطلب منّا ذلك، أبي أمرني بأن أُبلغك هذا.
- شكرا لك مروان، أنت صديق وفيّ.
***
كنتُ آمُل أن تكون تلك الزّيارة المفاجئة وغير المرغوب فيها من ذلك الصّهيونيّ البغيض، هي آخر مرّة في حياته التي تمنيت أن تنتهي إلى الأبد فأتخلّص من شرّه، غير أنّ الأمور لم تجرِ بما اشتهيت، ففي أحد الأيام وبينما كنّا قد اقتربنا من منزلِنا، وقبل أن نفترق فيَسِير مروان مع أخته صفاء باتّجاه بيتهم، وأُرافق أختي سلمى إلى دارنا، إذا بنا نسمعُ

مزمار سيّارة يدوّي خلفنا كأنّه صفاراتُ إنذارٍ تُنذر بوقوع غارة في مكان قريب منّا، تلفّتنا مُفسحِين الطّريق لها خوفاً من أن تصدمنا، فقد صار محرّكها يزأر في آذاننا، ما إن صارت بِحَذونا حتّى صاح أحدهما بنا:

- هاااي يا فتيان من منكم ابن سعيد الخليلي؟

توقّفنا عن السّير والتفتنا نحوه، همس لي مروان قريبا من أذني بصوت خافت:

- هذان هما الرّجلان اللّذان كلّمتك عنهما.

كان السّائق في الجهة الأخرى، يلبسُ نظّاراتٍ زرقاءَ بلون السّماء، يبدو أنّ من صاح فينا هو من يركب بجانبه، حيث أنّه كان يواجهنا مباشرة، توقّفت السّيارة عندنا تماما، بدأ الرّجل يتفحصّنا جيّدا، عيناهُ تضطربان من فوق نظّارته السّوداء، وحينما التقتا بوجه سلمى قال متذكّرا:

- آآاه، أنت هي البنت التي كلّمتُها آخر مرّة.

التفتَ إليّ أنا ومروان، كانت عيناه تنتقل جيئة وذهابا بيننا، ثمّ سألنا:

- من منكما ابن سعيد؟ أعلم أن سعيد له ابن وحيد اسمه سمير.

أشار بيده إليّ وقال كأنّما يجيب نفسه:

- أنت هو سمير، أليس كذلك؟

يبدو أنّه خمّن ذلك حينما رأى سلمى بجانبي، ترددتُ في البداية، لكنّني قرّرتُ أن أجيبه حتّى أُبعد الشّبهة عن صديقي مروان فلا يتعرّضَ لأيّ مشكلة معهما:

- نعم أنا هو، ماذا تريد منّي؟
التفتَ الرّجل إلى صديقه الذي نزع نظاراته، راحا يتكلّمان بالعبريّة فلم أفهم ما دار بينهما، بدا لي السّائقُ كأنّما قد طلب منه أن يقول لي شيئا، حيث أنّه لا يستطيع التّحدث بالعربية مثل مُرافقه، الذي استدار باتّجاهي وقال لي:
- هذه الأرض ملكٌ لِعزرا روبين، وهذا ابنه شلومو وريثُه الوحيد بعد أن توفّي والدُه.
- لكنّ أبي اشترى الأرض منهم.
- أبوك محتال، عِزرا باعَ الأرض لسمسار يهوديّ، لو كان يعلمُ بأنّ والدك سيشتري المزرعة لما رضي بأن يبيعها إيّاه، الآن عليكم أن تخرجوا منها فورا وإلّا تصرّفنا معكم بأسلوبٍ آخر.
أمسكتُ سلمى بيدي وركضت بها مبتعديْن عن السّيارة، حتّى أتفادى سماع المزيد من الكلام من ذلك الرّجل البغيض، الذي فتح باب السّيارة ولحق بنا مسرعا، أدركَنا قبل أن نصل إلى باب المنزل، التفّ حولنا ووقف أمامي، حاول أن يمسكني من ياقة الجاكيت، فأشحتُ بيدي مبعدا يده عنّي، ثمّ نَبحَ مثل كلب:
- يجب أن تستمعَ إلى الكلام يا فتى، عليكم أن تُخلوا المكان وترحلوا من هنا، مفهوم.
تجاوزتُه حيث أنّني لم أشأ الرّد عليه، جريتُ أنا وسلمى، شعرتُ أنّه قد التفتَ نحونا وبدأ يراقبنا، كانت أنفاسُ لُهاثِه تَطِنّ في أذنيّ، وقبل أن

أُمسك مقبضَ الباب بقيَتْ يدي معلّقةً في الهواء بعض الوقت حينما قال:

- سوف تندم كثيرا إن لم تنصع للأوامر يا شاطر.

فتحتُ الباب، دخلتْ سلمى قبلي ثمّ تبعتُها، أغلقتُ الباب وأمسكتُ بها قبل أن تُخبر أمّي، أشرتُ لها بأن وضعتُ أصبعي على شفتيّ، وقلت لها:

- لا تخبري أمّي بما حدث، سوف تقلق كثيرا، قد يؤثّر ذلك على الجنين.

- حسنا، لن أفعل.

سمعتُ السّيارة وهي تغادر المكان من داخل البيت، حينما خَفَت صوتهُا فتحتُ الباب بمقدار شبر، كان الوغدان يختفيان بسيارتهما في الأفق بسرعة جنونية، تلفتُّ عن يميني فوجدتُ مروان على وشك أن يدخل منزلهم مع أخته صفاء، سوف لن يكون مجديا اللّحاق به، حتّى وأنا أخرج لأحاول ذلك، تمنيّتُ ألّا يذكر لوالده شيئا ممّا حصل.

***

في نهاية الأسبوع كنت في البستان أتأمّلُ أغصان الأشجار وهي مثقلة بالثّمار على وشك النّضوج، قطفتُ حبّاتٍ من اللّوز من غصن انحنى متدليّا من ثقله، قَرْفَصْتُ ووضعتها على صخرة، أمسكتُ بحجر وشرعتُ في تهشيمها، استخرجتُ اللّوز وتذوّقته، بدا لي ناضجا، إنّها إشارة جيّدة على أنّنا سنبدأُ الجني قريبا.

أمامي خارج سياج البستان كان مروان واقفا حينما رفعتُ رأسي، لوّح لي بيده حيث أنّه كان بعيدا عنّي، اقتربتُ منه وأنا أظنُّ أنّه سوف يكلّمني عن موضوع قطف الثّمار، من الممكن أنّ عمّي أبو مروان قد طلب منه

أن يُعلِمني بتاريخ الجَني حتّى أتأهّب له، قال لي مروان وعيناه تُحاصران وجهي المترقّبِ لسماع ما سيخبرني به:
- أبي يريد أن يتحدّث معك، إنّه في المنزل.
- بخصوص ماذا؟
- لستُ أدري، ليس لديّ أيّ فكرة عن الموضوع.
في صالة منزل عمّي أبو مروان كان يجلس معه رجلٌ يبدو من ثيابه أنّه موظّف حكوميّ أو أستاذ بالجامعة، يرتدي بذلة بكرافتة، اقتربتُ منهما وسلّمتُ عليهما، أومأ إليّ عمّي أبو مروان بيده وطلب منّي أن أجلس إلى جانبه، ساد صمت وجيز فيما ازدادت حيرتي حول ما سيقوله لي عمّي أبو مروان، وهل للرّجل الجالس معنا دخلٌ بالموضوع، أم تُراه لا شأن له بالأمر الذي طلبني لأجله، وأنّه مجرد شخصٍ تربطه به قرابة أو ربّما كان بينهما شأنٌ ما، فجأة تنحنح عمّي أبو مروان مستبقا حديثه فقطع حبل تكهّناتي:
- سمير يا ابني... نحن جيران، والدك الله يرحمه كان صديقا عزيزا وأنت في مقام ابني مروان، وما يضرّك يضرّني أنا أيضا، لقد أخبرني مروان بما حدث مع ابن عزرا اليهودي، الأمر جِدّي ولن يُفيد التّغاضي عنه شيئا، على العكس سيكون في غير صالحك يا ولدي.
- أعرف عمّي أبو مروان لكن أمّي مريضة، وأخشى عليها إن هي سمعت بالموضوع أن...
- شوف يا ولدي، هذا عمّك أبو نزار محامي، هو صهري وخال مروان، سيساعدك في الأمر، استمع إلى ما سيطلبه منك.

- حاضر عمّي.
صَوّب المحامي عينيه باتجاهي كأنّما يحاول إمساكي بهما لِئَلّا أُفلت منه، لم أجد بُدّا من الاستجابة إلى إلحاحهما، شعرتُ وكأنّه قد وضع بنظراته مُخدّرا في عينيّ أو أنّه نوّمي بمغناطيسها الجذّاب، انشقّت شفتاه عن سؤالٍ بدا لي أنّه قد تجاوز به العديد من الأسئلة، التي من المفترض أن يستبق بها حديثه معي:
- مروان يا ابني... الأرض... هل هي لا تزالُ باسم والدك أَم باسم شخص آخر الآن؟
- لاتزال باسم والدي الله يرحمه... سعيد الخليلي، كانت أمّي تودُّ أن تقوم بإجراءات نقل الملكية، لكنّ الظّروف القاهرة جعلتها تعدِل عن الأمر إلى حين.
تحرّك المحامي في مكانه كأنّما صعُب عليه هضمُ كلامي، الذي بدا لي من تكشيرة ملامحه غيرَ منسجمٍ مع ما كان يأمله، قال لي بنبرة متثاقلة:
- حتّى تكون الظّروف في صالحكم، بعد وفاة أبيك يجب أن تنتقل ملكيّة الأرض إلى شخص على قيد الحياة، هذه المسألة ضروريّة جدّا يا ولدي.
- لكنّ أمّي على وشك أن تضع مولودها، ولن يكون بوسعها الذّهاب إلى المدينة من أجل القيام بالإجراءات.
تفحّصني أبو نزار بعينين تعمّد أن يضيّقهما، كما لو أنه يُقدّر شيئا يتعلّق بي، زَمّ شفتيه وعضّ عليهما، ثمّ أصدر صوتا من بين حنكِه ولسانه، كأنّه يستطيب طعم قطعة حلوى لا أجدُ لها أثرًا في فمه، ثمّ سألني:

- كم عمرك يا بنيّ؟
- سبعة عشر سنة.
اندفع بصُلبه إلى الأمام متخليًّا عن الوِسادة التي كان يستند إليها، ضمّ يديه وفرَكَهما على بعضهما كما لو أنّه عثر على ما كان يبحثُ عنه، تلفّت إلى عمّي أبو مروان وقال بسرور بدا جليّا من أسنانه النّاصعة التي انزلقت خلف شفتيه:
- هذا جيّد، سمير... بإمكانك تَمَلُّك مزرعة أبيك مؤقّتا، القانون يسمح بذلك، ريثما تطيبُ أمّك.
تطلّب منّي القيام بإجراءات نقل ملكية الأرض المؤقتّ هذا أن أتغيّب ليوم كاملٍ عن الثّانوية، أمضيتُ أنا وأمّي على أوراقٍ لا تنتهي عند الموثّق، لم يكن بمقدور أختي سلمى التي ذهبت إلى المدرسة أن تُمضي فهي لم تبلغ السّن القانونيّ بعد، كرّر لي أبو نزار المحامي أنّ هذا الإجراء مؤقت، وأنّ علينا بعد تحسّن حال أمّي أن نباشر إجراءات تقسيم المزرعة بيننا نحن الثّلاثة، التفتَتْ أمّي إليه وقالت له بصوتٍ جازم وحازم:
- سمير هو رجلُ البيت، ستظلّ المزرعةُ باسمه، لن نُقسّمها حتّى ولو كان ذلك على الورق فقط.

# (7)

# في الاتّحاد قوّة

اتّفق سكان الخربة على الشّروع في جني الثّمار بدايةً من يوم الخميس الذي يسبق منتصف شهر أكتوبر، رأيتهم في الصّباح حال ذهابنا إلى بيت كاحل للدّراسة على عادتنا، كانوا متجمّعين عند عمّي أبو إياد، هكذا قرّروا أن يبدؤوا بأبعد مزرعة ثمّ يتقدموا باتجاه مزرعتنا تدريجيّا، أبلغتُ عمّي أبو مروان كي يُعلم السّكان أن يكون جنيُ محصول اللّوز في بستاننا بيوم الجمعة حتّى أكون حاضرا، وهكذا سيتولّى أصدقائي لوحدهم جني محصول الزيتون يوم السّبت.

إنّه أوّلُ قطاف سأحضره في غياب أبي، سبق لي أن شاهدتُ العملية لموسمين، أُفكّرُ وأنا جالسٌ في الباص بما يحدث في هذا الوقت في الخربة، يتعاون السّكان متكاتفين وينقسمون إلى مجموعات، تتكوّن كلّ مجموعة من خمس أو ستّ عائلات حيث يشترك الجميع آباءً وأبناء، حالما يُنهون قطف محصول أحدهم يمرّون إلى بستان جاره ليباشروا نفس العمليّة، تنهمكُ النّسوة داخل بيوتهنّ في تحضير الطّعام والشّراب للعمّال، الذين ينطلقون في جوّ بهيج مليء بالهمّة والنّشاط.

يَفرِش رجلان تحت الشّجرة بساطًا من البلاستيك، وينصِبُ ثلاثة شباب سُلّما يستندُ إلى رأس شجرة الزّيتون، يصعد شابٌ إلى الأعلى، يُمسك غصنا ويخنقه برفق بين يديه، يسحبهما رويدا رويدا بينما يقتلع

حبّات الزّيتون، التي تقعُ على البساط فيُحدِث تساقطُها طقطقةً تُشبه صوت انهمارِ البَرَد، في أسفل الشّجرة يلتفّ الشّباب والكهول حولها يقطفون الزّيتون ويضعون حبّاته في أواني بلاستيكية، وحينما يفرغون من شجرةٍ ينتقلون إلى التي تليها، بعدما يجمعون الزّيتون المتناثر فوق البساط ويعبّئونه في أكياس.

نَتتابع الصّور في مخيّلتي طوال الحصّة الأولى، لا أنتبه لما يقوله أستاذ الإنجليزية، كنت طوال الوقت أنتظر انتهاء الدّرس، حتّى أجتمع بأصدقائي وأخبرهم بموعد القطاف كي يستعدوا لمساعدتي.

في صباح الجمعة أتت عمّتي خولة، لم تمض أكثر من ساعة حتّى دخلت علينا خالتي نوال، كنّا لم ننه إفطار الصّباح بعد، كانت أُمّي تجلس على كرسيّ معدنيّ مبطّن وتضع يدها على بطنها وتتنفس بمشقّة، وجهها ذابل وعيناها تغوصان في محجريهما تُحاصرهما أجفانٌ مُزرقَّة، كانت أمّي قد اتّصلت أمسِ بهما كي تقفا على تحضير الطّعام لسكّان الخربة، اتفقتُ معهم كي يقطفوا محصول اللّوز يوم الجمعة، ومع أصدقائي الذين سيقومون بجني محصول الزّيتون يوم السّبت.

***

مع خروج المصلين من مسجد الخربة صباح يوم السّبت، كان أصدقائي قد أنهوا صلاة الصّبح تحت أكبر شجرة زيتون تتوسّط البستان، كان فطور الصّباح جاهزا أخرَجته خالتي نوال ووضعته بجانب مدخل المنزل، حملتُه مع مروان إلى أصحابنا الذين أحاطوا به كالنّسور المفترسة، ساد

صمتٌ أعقبَ الكثيرَ من الضّحكِ على وقعِ نوادر رؤوف ونُكت يوسف، اقتحمه مروان بدعابةٍ من دعاباته التي لا تُجامل أحدا:
- ما بكم؟ هل أنساكم الطّعام كيف يكون الكلام، ما بالُكم توقّفتم عن الضّحك؟ يبدو أنّ الفطور يقُصّ حكايات محزنة.
- لا كلام ولا سلام في حضرة الطّعام سيد مروان.
ردّ جمال على ملاحظات مروان الممازحة، بعدما عقّب عليها الجميع بضحك مقتضب.
عاد الصّمت ليسود الموقف، كسرته أصوات المضغ وقعقعة الأطباق، التي كانت تهتزّ على وقع لحس رفاقي الذين لا يقصّرون في تنظيفها بأشداق الخبز الأخيرة، فجأة نهض مروان واستقام واقفا مثل نابضٍ تقلّص ثمّ ارتخى من بين الأصابع، حمل سُلّما بالطّول ولم يلبث أن أسنده إلى أعلى الشّجرة وارتقى درجاته بسرعة رهيبة، تنمُّ عن سابق تجربة في ميدان اقتلاع حبّات الزّيتون من أغصانها المرتفعة، فجأة بدأ الزّيتون يتساقط فوق رؤوسنا كما المطر، نَدَّتْ أصواتٌ متذمّرة ومستاءة من أفواه بعضهم، ردّ عليها مروان بنبرة مؤنّبة:
- حان وقت العمل أيّها الكسالى، هيّا انهضوا، أم تراكم تظنّون أنّكم أتيتم هنا للنّزهة؟
في ثانية واحدة كان الجميع قد وقفوا والتفّوا حول الشّجرة، يعانقُون أغصانها ويقتطفون حبّاتها التي تلمع من شدّة اكتنازها بالدُّهن، يبدو أنّ كلام مروان استفزّهم، أو ربّما حفّزهم، لستُ أدري بالضّبط أيّهما أصحّ، أو ربّما كان مزيجًا من كليهما معا.

مرّ النّهار سريعا، نُحاصر الشّجرة كالجراد وننتزع زيتونها بخفّة مدهشة بدأت تزداد مع إنجازنا لنصف المهمّة، فقد كنتُ اتفقتُ مع أصدقائي على أن نقطف محصول خمسة صفوف من أشجار البستان، لنعاود جني ما تبقّى في الأسبوع القادم.

ما إن الْتَهمْنا مع انتصاف النّهار صينيّة مَنسف تنضحُ لحمًا، كانت قد أعدّتها عمّتي خولة بمساعدة خالتي نوال، انقضضنا عليها بوتيرة لا تقلّ نشاطا وحيويّة عن هِمّتنا في التّعامل مع الأشجار، وجلسنا بعدها نلتقط أنفاسنا المرهقة من ثقل ما ابتلعته بطوننا الشّرهة من أُرز ولحم، حتّى شعرنا بالأرض تُصدرُ ذبذبات خفيفة بدأت تتصاعد وتتحوّل إلى هزّات يرتجفُ لها البستان من تحتنا، صاحَبها ارتفاعُ صوت محرّكٍ كان يبعث أزيزا بدا جليّا حينما انبثقتْ من الأفق القريب، أعلى التّلة، جرّافةٌ تسيرُ على مجنزرات، خلفها بثوانٍ فقط لمحْنا تلك السّيارة السّوداء الملعونة التي كنت أتمنّى أن لا أراها ثانيةً، بعد دقائق وجدنا أنّ أبوابها الأربعة قد انفتحت دُفعة واحدة بالقرب منّا، في الوقت الذي وقفنا فيه نترقّب ما يمكن أن تلفظَه تلك الأبواب من أشباه البشر، كانوا خمسة ذكور يفتقدون معدنَ الرّجال، يحملُ كلٌّ واحد منهم قضيبا صلبا وطويلا، ما بين عصا بيسبول وأُنبوب حديديّ، كان شلومو قد نزل من سيارته وهو يضع على كتفه زناد بندقية صيد صوّبها باتجاهنا لإرعابنا.

توقّفت الآليّة عن الحركة لكنّ محرّكها ظلّ يُكسّر سكون المكان بهديره الذي يُصِمّ الآذان، اعتلى شلومو دَرجها الملاصق لباب السّائق، الذي أزاح زُجاج نافذتها ليتمكّن من الاستماع لما سيقوله له، لاحظتُه يهمس

في أذنه بكلام موجز، ما إن قفز من الدَّرج على الأرض حتى تحرّكت الجرّافةُ نحو منزلنا، رافعةً شفرَتها العملاقة بشكل عُدواني، بدا معه أنّ السّائق يُخطّط لهدمه، بالطّريقة نفسها التي تتكرّر بها مشاهدها في التلفزيون، حينما تُدمَّر منازلُ الفلسطينيين بأمر من سلطات الاحتلال، ركضنا جميعا ناحية المنزل، والخوف يتملّكني من ترقّب ما سيحدُث، بدأ بعضُ أصدقائي في أثناء ذلك بالتقاط أحجارٍ من الأرض استعدادا لقذفها على الآليّة، التي تردّد سائقُها حينما رآنا متجمّعين نحمل الحجارة في أيدينا وبقمصاننا للرّد على هجومه.

في الأثناء خرجَتْ أختي سلمى من البيت مسرعةً، تُنادي عليَّ بصوتٍ يُنذر بوقوع خطب ما، عليّ الاستعداد لمجابهته:

- سمير... سمير...

التفتُّ ناحيتها فوجدتُ أحد المعتدين يجري صوبها، عرفتُ أنّه سيختطفها ليبتزّنا بها، رفعتُ صوتي محذّرا سلمى:

- سلمى... سلمى... أُهربي إلى الدّار.

لم تكد سلمى تهمّ بالرّكض مبتعدة عن المكان، حتّى كان ذلك الوحشُ غير الآدميّ قد قفز قريبا منها، خارت قواها من الذّعر، وأحسستُ من مكاني أنّ رِجليها الواهنتين قد أصابهما خَدَرٌ شلَّ حركتهما، فاستسلمتْ له بينما انقّض عليها وأحكم قبضته السّاحقةَ على رقبتها الرّقيقة، لم يمنعها ذلك من أنّ تصرخ قائلةً:

- سمير... أمّي... لقد اقترب وقتُ وضعها... إنّها تتألّم بشدّة الآن...

شعرتُ بارتباك وحيرة، ما العمل الآن؟! أختي رهينة في يد ذلك الوغد وأمّي تحتاج لمن يوصلها إلى المستشفى لتلد، في الأثناء أخرج صديقي رؤوف من جيبه مقلاعه الذي لا يفارقه في خرجاته الخلويّة، ألقمه حجرا وراح يلوّح به ببطء، بدأ دورانهُ يتسارع ويُحدث صوتا يُشبه صوت المروحة نتيجةً لاحتكاكه الشّديد بالهواء، في الأثناء انتبه ذلك الوغد الذي كان يُمسك بسلمى لما يفعله رؤوف، لمحتُ خوفا في عينيه، تراجع خُطوتين منكفئا إلى الخلف، بدا عليه الارتباك فأرخى قبضته عن فم سلمى، التي اغتنمت فرصة ذهوله فعضّت ذراعه، أفلتها من يده بعدما أَلهاهُ ألمُ العضّة، وحين رآها هاربة نحونا حاول اللّحاق بها، شرعنا عند ذلك في قذف الحجارة صوبه فأقلع عن مطاردته لها وولّى هاربا، في هذه اللّحظة سمعتُ مِن خلفي صوت حجر رؤوف يُحلّق في الجوّ، يصاحبُه صوتُ اختراق الهواء، تتبّعتُ وجهته فإذا به يرتطمُ بظهر الوغد محدثا جلجلة عظيمة، سقط على إثرها مغشيّا عليه.

احتضنتُ سلمى التي ألقت بجسدها بين ذراعيّ خوفا من ذلك الشّرير من أن يكون قد لحق بها، في الأثناء التقط رؤوف حجرا آخرا ووضعه في المقلاع ولوّح به مهدّدا، وضع شلومو بندقيته على كتفه وصوّبها ناحية رؤوف، الذي ألقى بحجره على زجاج الآلية وانسحب هاربا ليختبئ خلف المنزل، أحدث صوت تكسّر الزّجاج هلعا وسط المعتدين.

اغتنمتُ فرصة ارتباكهم وأخرجتُ الهاتف النّقال من جيبي، اتّصلتُ بخالي حسين وأخبرته على عجل بأمر أمّي وبما يحدث معي، قال لي أنّه في الطّريق إلينا فقد أخبَرتْه خالتي نوال بالأمر، خرج رؤوف من خلف

المنزل يلوّح بالمقلاع بشدّة بدا معها أنّه على وشك تسديد ضربة قويّة نحوهم، انطلق الحجر كالقذيفة يخترقُ بصوته النّفاث عُباب السّماء ليستقرّ في جمجمة سائق الآلية، رأيناه يُلقي برأسه ساقطًا على المقود.
هرعَ الأشرار الثلاثة لإسعاف سائق الجرّافة، بينما راح شلومو يُلقم بندقيته رصاصًا أطلقه باتجاهنا، استبقناه مسرعين خلف المنزل، كان لا يبعدُ عنّا سوى بخطوات يسيرة، كنّا نلهث بشدّة، أصابت طلقةٌ نفذ رؤوف، التفّ حوله الجميع، بعد أن سحبه مروان ويوسف خلف المنزل، وحاول بشير إسعافه، في الوقت الذي رُحت فيه أُطمئنُ أختي سلمى التي بدا على وجهها الهلع، أمسكتُ رأسَها بين يديّ وألصقتُ عينيَّ بعينيها، قلتُ لها مهدّئا من روعها:
- لا تخافي سيكون كلُّ شيء على خير ما يرام.
لم نعد نسمع صوت الرّصاص، توقّف فجأةً، في الأثناء اختلستُ النّظر عند ركن المنزل، شاهدت شلومو وهو يُعين صديقه الذي أصابه رؤوف في ظهرِه على المشي، كان يعتمد على كتفه، بينما كان الثلاثة الآخرين ينقلون سائق الجرّافة إلى السّيارة، كان لغطهم مرتفعا ويَرْطِنُونَ بكلام لم نفهم منه شيئا، امتطى أحدهم الآليّة وأدارها، بينما ركب أصدقاؤه السّيارة وغادروا المزرعة يجرّون أذيال الخيبة خلفهم.
لم نكد نساعد رؤوف على ركوب سيّارة عمّي أبو مروان ليوصله إلى المستشفى، حتّى وصل خالي حُسين، كانت خالتي وعمّتي تنتظران مع أمّي، التي كانت تجلس عند الباب مستندة على جدار، ركبتْ خالتي نوال بجانب أمّي في الخلف، فتحتُ الباب الأماميّ كي تركب سلمى

بجانب خالي، انطلقت السّيارة، لم تكد تجتز شجرةَ اللّوز القريبة من البئر حتّى توقفتْ فجأة، بدأتُ أرقب في حيرة ما يحدث بينما كنتُ أعدو نحوهم، لاحظت أنّ الجميع ينزل، كانت خالتي نوال تُساعد أمّي على المشي نحو الشّجرة، فيما كان خالي تحتها يفرش بطانيّة، فهمتُ من ذلك أنّ أمّي قد أدركها المخاض ولا مناص من أن تلد في المكان، أكملتُ طريقي بالسّرعة نفسها نحو منزل مروان، خطر ببالي أن أُخبر خالتي أمّ مروان حيث أنّ لها خبرة في التّوليد، ما إن وقفتُ عند بابهم ودققته حتّى فتحه عاطف أخو مروان الأصغر فأخبرتُه بما يحصلُ مع أمّي، فهبّ مناديا أمّه كي يستعجلها، عند خروجها من بيتها قالت له:

- احمل معك دلو ماء دافئٍ واتبعني.

***

# (8)

# أحلامٌ تتحقّق

عُدت للتوّ من الثّانوية عشيّة يوم الأحد الذي تلى الحادثة، ما إن ملأتُ عينيّ بمشهد أخي الصّغير سعيد، نعم... سعيد هكذا أسميناه، وُلد عند البئر الذي مات فيه والدي سعيد، حتّى سمعتُ صوتَ محرّكات سياراتٍ بالخارج، أعقبها صياحُ مزاميرها الهدّارة، خرجتُ لأستقصيَ الأمر فوجدتُني في مواجهة قطيع من العساكر الإسرائيليين يحاصرون منزلنا بسيّاراتهم الأربعة:

- أنت سمير الخليلي؟

سأل أحدُهم بعدما أزاح بأصبعه إلى الأعلى خوذتَه التي كادت أن تغطّي عينيه الحادّتين، أجبته دونما تردّد وقد أدركتُ سبب مجيئهم، من المؤكّد أنّ الأمر يتعلّق بما حدث بالأمس:

- نعم... أنا هو.

أشار بحركة من سبّابته دون أن يُعقّب على إجابتي، كان ذلك كافيا لأن ينقضّ عليّ أربعةٌ من رجاله المسلّحين ويُرغمونني على الرّكوب معهم، لم يتركوا لي فرصةً لأُخبر أمّي حتّى.

في المقعد الخلفي لسيّارة الهامر كُنت محشورا بين جنديين، لم يلبث موكبُهم أن أقلع مغادرًا المزرعة، حتّى سمعتُ من نافذة السّيارة المقابلة لمنزل عمّي أبو مروان صراخَ مروان المختلط بلهاثه النّاجمِ عن ركضه، وقد هيمن هديرُ المحرّكات على وقع قدميه:

- سمير... تشجّع ولا تخف، سيُخبرُ أبي خالي أبو نزار وسيُتابع قضيتك ويُسارع...

فهمتُ أنّ مروان كان قد رأى كلّ شيء، كتَمَتْ سرعةُ السّيارات صوته الذي تلاشى تماما ولم أعد أسمع بقيّته، تخيّلتُه وهو يتباطأ خلفنا حتّى توقّف عن الرّكض، بعد أن يئس من اللّحاق بالسّيارات التي كانت تطير على الطّريق التّرابيّ، تَلُوكُ عجلاتُها حجارةَ الأرض وتلفظُها فتصطدم بهيكل السّيارة وتُحدث قرقعةً تُشبهُ نقرَ حبّات البَرَد على زجاج النّوافذ، وتُخلّفُ سحابةً من الغبار أعاقت رؤيتي لمنزلنا، الذي اختفى وراء شبّاك معدني يلتصق بالزّجاج الخلفي للسّيارة.

في ثكنة الجيش كان أوّلَ شيء قلتُه بعدما طلب منّي الضّابط المكلّفُ بالتّحقيق أن أجلس وسألني عن اسمي:

- لن أتكلّم إلّا في حضور المحامي أحمد المفتي... لديه خبرٌ بذلك سوف يأتي بعد قليل.

لم أكن على يقين من كلامي، حتّى من لقب المحامي أبو نزار الذي استنبطته من سابقِ معرفتي بِلقب خالتي أمّ مروان، غير أنّ ثقتي في أنّ عمّي أبو مروان لن يهدأ له بال حتّى يُخبر المحامي أبو نزار بما حدث لي جعلتني أطمئنّ، خمّنت أنّ إبلاغ مروان له باعتقال العساكر لي سيدفعه حتما لأن يزورني في الثّكنة. أمر الضّابط جنديا بأن يضعني في الحجز ريثما يحضرُ المحامي.

كان صريرُ باب الحجز إذ يُغلقه الشّرطي يُشعرني بمعنى الأَسْرِ لأوّل مرّة في حياتي، مرّ بخُيّلتي كلُّ ما سمعتُه في السّابق عن الأطفال الذين

تعتقلُهم سلطات الاحتلال في سجونها، تذكّرتُ صديقنا أمجد عصام الذي يدرس بالثّانوية، كان يسبقُنا بسنة، غير أنّ اعتقاله جعله يُفوّتُ من دراسته، مُجبرًا، عامًا كاملًا قضاه في سجنِ عِتْصْيُونْ، لم يشفع له صغرُ سنّه وهو لم يتجاوز حينها السّادسة عشرة بعد من أن يتعرّض لأبشع صور الظّلم والبطش؛ من ضربٍ وإهانةٍ وشتائم، كانت تُهمته الوحيدة كما حكى لي أنّه قذف حجارةً على جنود إسرائيليين كانوا يمرّون من أمام بيتهم، بينما كان يلعب مع أصدقائه بعدما تهجّم عليهم أحدُ العساكر واستفزّهم.

مرّ عليّ في الحجز أقلّ من ساعة كان كَيوم بحاله، عاد العسكريّ وفتح الباب وأمرني بالخروج للعرض على المحقّق، رجعتُ إلى القاعة التي كان يجلس فيها الضّابط، كان بجانبه المحامي أبو نزار، ارتحتُ كثيرا عندما رأيته، سلّمتُ عليه وجلستُ مقابلَه.

استأذن أبو نزار من المحقّق للحديث، قال له أنّ موكّله "سمير الخليلي" كان بصدد الدّفاع عن النّفس؛ حيث أنّ المدعو شلومو روبين اعتدى على شخصه وعلى ملكيّته الخاصّة، المتمثّلة في مزرعته التي يحوز على وثائقها والمسجّلة باسمه، وأنّ أصدقاءه الذين كان يستضيفهم في بيته ساعدوه في تأمين الحماية له من المعتدين، الذين كانوا يحملون أسلحة بيضاء، إضافةً إلى أنّ شلومو كان بيده سلاحا ناريا هدّدهم به وأطلق منه العديد من الأعيرة، كما أنّهم جلبوا معهم جرّافة كان سائقُها قبل إصابته قد تلقّى أوامر من شلومو بهدم المنزل باستخدامها. لم أذكر كلام

المحامي أبو نزار بالتّفصيل، غير أنّ ما رسخ في ذهني بعد صمتٍ وجيز، قولَه للمفتش:

- أُطالبكم بالتّحقيق أولا مع المعتدين، موكّلي مُعتدَى عليه وهو الضّحية وليس الجاني، فقد كان في حالة دفاع عن نفسه ومنزله.

أطلق الضّابط المحقّق سراحي، كان عمّي أبو مروان بانتظارنا في الخارج داخل سيارته، أوصلْنا المحامي أبو نزار إلى بيته في حيّ الرّامة ثمّ عدنا إلى خربة الصّفا، عندما التقيتُ بمروان عند بيتهم وأنا أنزل من السّيارة عانقني بحرارة، وهنّأني برجوعي سالما من مكانٍ قلَّما يعودُ فيه أحدٌ في نفس اليوم، حتّى من هم في مثل سِنّي، قال لي بأنّه اتّفق مع جميع الأصدقاء بأن نزور رؤوف في المستشفى، طمأنني بأنّه بخير وأنّ حالته مستقرّة بعد العملية الجراحيّة التي أجراها لنزع الرّصاصة من فخذه.

***

كانت البهجة تغمر قلبي ونحن ملتفّين حول رؤوف، نُمازِحُه وهو في كامل حيويّته وسروره بوجودنا إلى جانبه، كان شعوري ذاك يمتزج بالأسف من أجله كونه تعرّض للإصابة بسببي، قال لي وهو يلمح ما يُشير إلى ذلك في وجهي، فقد كنتُ مُنسحبًا إلى الخلف وصامتا طوال الوقت خجلًا منه:

- سمير... أرجو ألّا تعتقد أنّك كنتَ السّبب فيما حدث لي... دعك من ذلك... أليست مزرعتُك جزءا من فلسطين؟

- أكيد صديقي رؤوف.

- ما حدث لي هو فداءٌ لأرض فلسطين.

كانت كلمات رؤوف تُشعرني بالفخر به، وبالعزّ بأنّنا وعلى الرّغم من سنّنا المبكّرة إلّا أنّنا نحبّ بلدنا لدرجة التّضحية بأرواحنا من أجله، ونتمنّى أن يتحرّر في يوم من الأيّام من بطش الاحتلال، عزمتُ عندها على أن أكتب أولى رواياتي، يبدو أنّ هذا الموقف بمشاعره الفيّاضة، وسط أعزّ النّاس على قلبي، ألهمني بموضوعها، سوف أكتبُ عن ما حدث معي منذ مجيئنا إلى خربة الصّفا، سأقتبس ممّا عايشتُه من فقدي لأبي ومعاناة أُسرتي وذلك الموقف البطوليّ الشّهم من أصدقائي، وهم يلتفّون حولي كي يدافعوا ببسالةٍ عنّي وعنِ مزرعتنا. سأُسطِّر بكلّ تلك المشاهد الرّائعة والمعاني الصّادقة روايةً تحكي عن معاناة الشّعب الفلسطينيّ وتضحياته، سوف أوصلُ صوتَه المبحوح إلى أقاصي الدّنيا، تماما كما كنتُ أحلُمُ، هكذا قرّرتُ بينما كنتُ أضع يدي في يد رؤوف.

***

اعترتني لهفةٌ عارمة لم أشهدها في حياتي قَطّ، بينما كنتُ أحملُ قلمي لأُخطّط به معالم روايتي، وأنا أضعه على شفتي السّفلى سابحًا في شرود عميق أتصوّرُ شخصيّاتها وأحداثها، أوزّعُ الأدوار وأمزج بين الحقيقة والخيال حتّى أصل إلى الهدف وأوصل رسائلي للقارئ، أُخمّنُ احتياجاته ومتطلّباته فأحقّقُ رغباته فيما بين السّطور، وأزرعُ المتعة والتّشويق وأصنعُ روح المطالعة التي تجذبه إلى آخر كلمة في الرّواية.
ختمتُ تحرير أولى رواياتي بينما كنتُ أداعب سعيد الصّغير وهو يحبو على ركبتيه، فقد كان آخر شخصيّة أتطرّقُ إليها، طبعا لم أُسمّه سعيد،

كان اسمه في الرّواية طارق، أنهيتُ كلّ شيء، أغلقتُ حاسوبي المحمول ووضعته على مكتبي الصّغير، الذي أُراجع عليه دروسي وأكتبُ فوقه وظائفي وواجباتي، أطرقتُ هنيهة ورُحتُ أفكّرُ في إيجاد عنوانٍ للرّواية، فجأةً لمعت من بين بوارقِ إلهامي فكرة، قلتُ محدّثا نفسِي بصوتٍ مرتفع كأنّما توصّلتُ لاكتشاف عظيم:

- سأسمّيها: "فِتيانٌ في الشّمس".

استوحيت هذا العنوان من رواية "رِجالٌ في الشّمس" لِغسّان كنفاني، التي كنتُ قد أنهيتُ قراءتها قُبيل أَن أُتمّ روايتي بوقت قصير، لم يكن ذلك وحده السّبب، شعرتُ بأنّني لست لِوحدي بطلَ الرّواية، كانَ أصدقائي من حولي واقفين إلى جنبي في كلّ وقت وحين، كنّا جميعا أبطالًا نحنُ الفتيان، أحببتُ أن أكافئهم ولو رمزيّا على كلّ ما قدّموه وبذلوه من أجلي أنا وأُسرتي.

لم يكن نشر رواية "فتيانٌ في الشّمس" بالأمر الصّعب، فَبِمجرّد أن طرقتُ باب أوّل دارِ نشر، كنت قد استقصيتُ عن سُمعتها وطريقة عملها، فقد نصحني عمّي ممدوح بها بعدما استشرتُه في ذلك، وجدتُّ كلّ الحفاوة والتّرحاب من مديرها الأستاذ عمّار أبو زاهر، عَرَفني سريعا فقد قرأ عنّي في الصّحف، كانت قد نشرت حادثة اقتحام شلومو وعصابته لمزرعتنا، كانت تلك الوقائع التي تعرّضَتْ لها عائلتي دافعًا لصاحب دار النّشر كي يقبل مبدئيّا بنشر الرّواية، قال لي وَبَسمةٌ مشرقةٌ تعلو شِفاهه وتلتهمُ نصف وجهه:

- من جهتي سأقبل بعملك حتّى ولو اضطرّني ذلك إلى الخسارة، لكنّني لا أستطيعُ أن أتجاوز بعض الحدود، عليَّ أن أعرِضه على لجنة القراءة كي تَبُثَّ برأيها حوله.
- أشكرك كثيرا سيد عمّار على مَعزّتك، وأنا أتقبّل شرطك بصدر رحب.
الحمد لله... لقد جرت الأمور في صالح الرّواية التي لقِيتْ إقبالا جيّدا في الضّفة الغربية، ليس في أوساط الثّانويين ممّن هم في مثل سنّي فحسب، بل من جميع الفئات قاطبةً؛ أطفالٌ في الابتدائي والإعدادي، شبابٌ في الجامعة، وحتّى الكبار، كان التّعاطف مع قضيّتي هو مفتاحُ النّجاح، هذا ما قاله لي صاحبُ إحدى المكتبات في الخليل بعدما زُرته بدافع الفُضول، أردتُ أن أكتشف بنفسي صدى توزيع الرّواية على المكتبات.

***

كنتُ على وشك الخروج من الثّانوية حينما اتّصل بي الأستاذ عمّار، وأخبرني أنّ سلطات الاحتلال منعت دخول الرّواية إلى قطاع غزّة وإلى الأراضي الفلسطينيّة المحتلة، ولن يكون بوسع القُرّاء الاطلاع عليها في أماكن عدّة من البلاد، كما أنّها صادرت جميعَ النُّسخ أثناء عمليّة تفتيش في حاجز أمنيّ، بينما كانت دارُ النّشر تنقُل الكُتب التي ستشارك بها في معرض عمّان الدّولي للكتاب، لم نتمكّن من معرفة سبب ذلك، قال لي الأستاذ عمّار أنّ الأمر ربما يكون له علاقة بتناولي في الرّواية لممارسات الاحتلال، وتعدّيه على الأطفال القُصَّرِ وسَجنه لهم،

ومن الممكن أنّ تعرُّضي لتهاون القضاء الإسرائيلي في التّحقيق مع شلومو روبين، وتركِه حرّا طليقا دون محاسبته على ما اقترفه في حقّي هو السّبب وراء كلّ ذلك.

بعدها بأيّام طمأنني الأستاذ عمّار إلى أنّه توصّل إلى عقد اتفاق مع دار نشر أردنيّة، لطباعة الرّواية وعرضها في الصّالون، وأخبرني أنّني مدعو لحضور حفلِ بيعٍ بالإهداء، حيثُ سيكون بوسعي توقيعُ روايتي للقُرّاء، ابتهجتُ كثيرا لسماع ذلك، خاصّة وأنّ دار النّشر الأردنيّة تكفّلت بمصاريف سفري وإقامتي في عمّان لمدّة أسبوع، أبلغني بأنّ الحملة الإعلامية التي واكبت التّضييق على الرّواية ساهمت كثيرًا في التّرويج لها، فقد سمع عنها العديد في مناطق مختلفة من الوطن العربي وفي العالم أيضا، من خلال شاشات التّلفزيون ومواقع التّواصل الاجتماعي وحتّى عبر الصّحف والمجلات، وأنّ ذلك أوجد تعاطفا كبيرا مع قضيّتي، ليس هذا فحسب بل إنّ دُورَ نشرٍ عالميّة طلبت منه ترجمة الرّواية إلى لغات عدّة، منها الإنجليزية والفرنسية والإسبانية.

لا أكاد أصدّق نفسي، رُبّ ضارّةٍ نافعةٍ مثلما يقولون، بعدما كان الاحتلال يسعى جاهدًا لمنع انتشار روايتي، صار مَنعُه هذا سببًا في رواجها والإعلان لها مجانًا دون مقابل، الحمد لله... لقد تحقّق حُلمي بأن أُوصل صوتَ شعبي ومعاناته إلى العالم أجمع.

أيّاما بعد ذلك اتّصلَت بي شركةُ إنتاج تعمل في صناعة الأفلام السّينمائية، اقترح عليّ مديرها أن نُحوّل الرّواية إلى فيلم سينمائيّ قصير، قال لي أنّ كاتب سيناريو يعمل معهم كان قد اطّلع على نَصِّ الرّواية،

وأُعجب بها كثيرا، واقترح عليه ذلك، لم أُصدّق ما يحدث معي، أهذا الحدّ تتحقّق الأحلام؟! إنّها تُصبح واقعا حقيقيّا، بل فوق ما كنّا نتخيّله. كنتُ أسمع كثيرا من المتشائمين وهُم يُردّدون عبارةً لم أقتنعُ بصدقها طوال حياتي، يقولون: "المصائبُ لا تأتي إلا مجتمعة"، أيقنتُ بعدما اتّصلَتْ بي شركةٌ لإنتاج الأفلام الكرتونيّة أنّ العكس هو الصّحيح؛ نجاحٌ واحد لا يأتي مُنفردا، حتّى يجرَّ خلفه نجاحات تتلوها نجاحات، عرضَ عليّ صاحبُ الشّركة فكرةَ إنتاجِ مسلسل كرتونيّ مستوحى من رواية "فتيانٌ في الشّمس"، لم أُخفِ عنه قبولي بالفكرة، قال لي أنّ ذلك سيُساهم في إيصال رسائل روايتي بشكل مختلف إلى شريحة واسعة من الأطفال، قد لا تتمكّن من قراءة الرّواية لكن بوسعها أن تُشاهد مضمونها في حلقات تلفزيونيّة.

***

بحثتُ عن صديقي مروان في كلّ مكان؛ في بيته وفي بستانهم غير أنّني لم أجده، سألتُ عنه جميع من التقيتُ بهم، لا أحد يعلم، خطر ببالي أنّه عند شجرة الحقائق التي كنّا نسمّيها شجرة الأحلام، وجدته واقفا تحت ظلّها وبيده ورقة، اقتربتُ منه وسألته:

- ما هذه الورقة التي بين يديك يا مروان؟

- إنّها كشفُ نقاط شهادة الثّانويّة العامّة، الحمد لله لقد تحقّق حلُمي وحصلتُ على أعلى معدّل في الثّانويّة العامّة.

- الحمد لله، لقد تعلّمتُ درسا مهمّا، أظنُّك أنت أيضا قد فهمته وحفظته.

- بكلِّ تأكيد صديقي سمير، هذا الدّرس عنوانُه: "أحلامُ الأمسِ حقائقُ اليوم".
- على هذا سنُسمّي شجرتنا هذه ابتداءً من هذه اللّحظة: "شجرةُ الأحلامِ والحقائق".
قلتُ ذلك وقد صنعَتْ شفتايَ بسمةً، تجاوب معها صديقي مروان بابتسامة لا تقلُّ عنها سَعَةً وأَلَقًا، رفع مسمارا كان بيده كي أراه، وقال:
- لقد كَتبتُ حلما جديدا.
- ألا تكفُّ عن كتابة الأحلام؟
- الحلمُ أولى خطوات النّجاح.
اختطفتُ المسمار من يد مروان، وحفرتُ على جذع الشّجرة جملةً، شعرتُ وكأنّني أنقُشها في قلبي: " سأُكمل حفر البئر الذي بدأهُ أبي".
سجدنا نحن الاثنين شُكرًا لله الذي وفّقنا لتحقيق آمالنا، فلولا فضلُه علينا ما كنّا لِنصل إلى ما وصلنا إليه، فلِلّهِ الحمدُ من قبلُ ومن بعد.
تمّت بفضل الله وتوفيقه.

# الفهرس


بدايةٌ حالِمة..... 5
رحيلٌ قبل الأوان..... 14
عِبءٌ تنوءُ بحِمله الجبال..... 20
مِحنٌ تصنعُ من الأطفال رجالا ..... 27
الأزمة تلِد الهمّة..... 37
خُفّاشٌ يحومُ حول عُشّنا الهادئ..... 46
في الاتّحاد قوّة..... 55
أحلامٌ تتحقّق..... 63

# لا..

## لن أتخلّى عن أرضِ الأجداد

نهرتني أمي بحزم محاولة حسم الموقف وإنهاء جدالي لها بلهجة حادة وصوت مرتفع. خرجتُ عند ذاك من البيت وأنا أصيح مرتدا في غيظ مرير:

- أقسم أنه لو حدث ذلك فسألقي بنفسي في البئر وأموت كما مات أبي.

ركضتُ نحو البئر فلحقت بي أمي، وحينما أشرفتُ على حافته تظاهرتُ أمامها بأني سأرمي بنفسي إلى قاعه، لترجوني وهي تستغيث:

- لا، أرجوك يا سمير لا تفعل، كن عاقلا بني. لا تتركني وحيدة! ليس لي أحد غيرك في هذا العالم الموحش.

بدأت أمي تبكي، انهمرت دموعها على خديها. جثوتُ على ركبتيها وغرستُ وجهها بين يديها. أشفقتُ عليها عندها، غير أنني خفتُ أن تنصاع مجددا لرأي أخوالي وتوافق على بيع الأرض، فقلت لها مشترطا:

- حسنا لن ألقي بنفسي في البئر، لكن بشرط ألا تعيدي فتح هذا الموضوع ثانية.

- حسنا يا ولدي، لن يكون إلا ما تريده. فقط عد إليّ ولا تفجعني فيك، يكفيني ما أنا فيه بعد فقد أبيك.

تراجعتُ إلى الخلف، ومشيتُ ناحية أمي. أمسكتُ بيديها وساعدتها كي تنهض وقبلتُ يمناها، ثم جثوتُ عند قدميها ألثمهما وقلتُ لها متوسلا والدموع تنثال على خدي:

- أرجوك يا أمي لا تدعيهم يبيعون الأرض التي مات أبي من أجلها.